

اليوم رقم 6

بسم الله الرحمن الرحيم

الآن أصبح من الواضح أن القرآن يخاطب كل الناس، وبدأ يولي اهتمامه بسرد القصص التاريخية لبني إسرائيل ويعرفهم بتفاصيل من ذلك التاريخ خفي على الكثير منهم. كما أن مستضعفي مكة أخذوا يسمعون آيات القرآن تخاطبهم. وهذا ما جعل أخبار دعوة محمد تصل ليثرب، ولابد أن البعض منهم توافدوا على مكة للاستماع لما يقول عنهم. البعض للرد عليه وتكذيبه والبعض للإصغاء فقد يكون ما يقول حقيقة. وقد دخل بعض هؤلاء الإسلام، وهم من نقله ليثرب ونشره هناك. (سيلاحظ القراء أن القرآن في مكة لا يذكر أبداً الأوس والخزرج، وإنما يذكر أن بعض بني إسرائيل دخلوا الإسلام، وهو ما يعني أنهم هم من نشر الإسلام في يثرب، وعلى أيديهم أمنت الأوس والخزرج، وهذا ما يخالف كلام كتب التراث).

وسنتناول اليوم إحدى عشرة سورة ، هي: مريم، الإخلاص، الكهف، الزخرف، غافر، سبأ، الكافرون، لقمان، النمل، الحجر، وسورة طه. والبداية مع سورة مريم.

والسورة بدايتها موجه لبني إسرائيل، حيث تروي قصة أحد أنبيائهم – زكريا – وكيف رزق بمولود ذكر بعد أن بلغ من العمر عتياً: {1} ذَكَرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا {2} إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا {3} قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا {4} وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا {5} يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا {6} يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا {7} قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا {8} قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئْ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا {9} قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا {10} فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا {11} يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا {12} وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا {13} وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا {14} وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُنْعَثُ حَيًّا {15}

ومجيء المولود لم يكن استجابة لدعوة والده زكريا، ولكنه حقق رغبة كان زكريا يتمناها. ولعل زكريا كان يتمنى لو رزق بمولود، وهو ما عبرت عنه السورة بـ "نادى ربه نداءً خفياً" فتحققت

أمنيته. الدليل على ما نقول هو أنه لما بشر بالغلام قال: {قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا} {8}.

ولو كان قد دعا ربه لقابل البشرى بالفرح وليس الاستغراب. ومولد يحيى، وعيسى، وآدم استثنائي ولقدر قدره الله لمهام خاصة. ويبدو أن يحيى لم يرزق بأولاد ولم يكن له ذرية.

والحمل ببحي ابن زكريا، وإسحاق ابن إبراهيم، تم بطريقتين متشابهتين – خارجة عن المألوف- حيث تقوم مخلوقات كونية غير أرضية بالتدخل لكي يحدث الحمل لنساء تجاوزن سن اليأس. وهذا يعني أنهن خضعن لمعالجة بطريقة ما فحدث الحمل.

وهذا التدخل – بأمر الله – ثم لحكمة إلهية، وليس استجابة لدعوة إبراهيم أو زكريا. لأنه لو كان فقط استجابة لدعوة إبراهيم وزكريا فهذا يعني سن قانون إلهي يوجب الاستجابة لكل شخص يدعوا ربه أن يرزقه بولد أن تستجاب دعوته. وإلا فإن الله تعامل مع هذين الشخصين بعاطفة واستثناء لا يتعامل بها مع خلقه عادة، وهذا مخالف لعدله جل وعلا. العدل الذي سار الكون وكل ما فيه من مخلوقات بقوانين ثابتة لا تتغير بتأثر عاطفي.

ومثل خلق يحيى وإسحاق، خلق عيسى بلا أب وآدم بلا أب أو أم.

بعد ذلك تذكر الآيات: (16-35) قصة حمل وولادة عيسى ابن مريم، وهي تهم بني إسرائيل دون قريش لأنها من تاريخهم، وجاءت تفاصيلها دقيقة لكي تقول – كغيرها من القصص التي تهمهم – أن محمد رسول الله وهذه القصص هي الدليل: وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا {16} فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا {17} قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا {18} قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا {19} قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا {20} قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا {21} فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا {22} فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا {23} فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا {24} وَهَؤُلَاءِ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا {25} فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا {26} فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا {27} يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا {28} فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا {29} قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا {30} وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ

وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا {31} وَبِرَّ الْوَالِدَيَّ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا {32} وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا {33} ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ {34} مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ {35}.

وكتاب مسيحية بولس وقسطنطين يتحدث عن تفاصيل مولد والحمل بعيسى، ويؤكد أنه لا علاقة له ببسوع الذي تنسب له المسيحية. وأن المسيحية الحالية لا علاقة لها بديانة عيسى ابن مريم. وقد اختلط الأمر على سلف المفسرين فاعتقدوا أن يسوع هو عيسى.

وقصة حمل مريم بعيسى تبينها الآيات التي بين أيدينا، حيث خرجت مريم إلى الخلاء لقضاء الحاجة، كعادة أهل شبه الجزيرة قديماً، وحتى وقت قريب جداً. وما أن همت بالعودة ظهر لها مخلوق تشكل على هيئة رجل بشري، ظنته رجلاً اختبأ لها. وهو ما يفهم من قوله: "إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا" من النقية والاختفاء، وليس كما قال المفسرون على أن المعنى هو أن مريم تقول له: لا تفعل بي سوءاً إن كنت تتقي الله.

والذي أحدث الحمل لمريم هو أحد مخلوقات الله الروحانية من الفضاء الخارجي، والذي قد يكون من جنس رسل إبراهيم، الذين لديهم قدرات تعتبر في العرف البشري خارقة للعادة. فقد حملت امرأة إبراهيم بولد نتيجة معالجتهم لها بطريقة لم تشعر بها ولم تتعرض لعملية جراحية أو تخدير وهي طاعن في السن، وبعد أن توقف عندها نزول البويضة منذ عقود، وهو ما حصل لزوجة زكريا أيضاً عندما حبلت ببيحيى. ومن قدرات هذه المخلوقات - المخلوقة من طاقة - أنهم يستطيعون التشكل على هيئة البشر والتحدث بلغاتهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يعيشوا كبشر ولا يتناول الطعام والشراب، لأنهم أجساد نورانية، ليس لها جهاز هضمي أو تنفسي. لذا فقد حدث الحمل لمريم بدون عمليات جراحية أو تماس جنسي، لأن تلك المخلوقات ليست مادية وليس لديها غرائز بشرية وليس لها جهاز تناسلي، لأنها لا تتناسل، وبالتالي لا تستطيع ممارسة الجنس البشري: فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا. قَالَتْ إِنِّي أَعُودُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا. قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا. قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا. قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئْ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا. (مريم: 17 - 21)

وقد حبلى مريم في الحال، فأسرعت ولاذت في مكان منعزل بعيداً عن الطريق {فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا} {22}. وسرعان ما شعرت بالآلام المخاض التي ألجأتها إلى الاستناد على جذع نخلة، وهو ما يدل على أنها لاذت بمزرعة نخيل قريبة. وفي تلك اللحظات، ومن الألم الحسي للمخاض والألم المعنوي لما سيسببه الطفل لها أمام الناس من حرج، تمنى مريم لو كانت قد ماتت ولم تر تلك اللحظة: فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا. (مريم: 23).

فلما وضعت: فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا. (مريم: 24)

وهذا قد يكون إيحاءً ولم يكلمها فعلياً، فبمجرد ما رأت الطفل حنت عليه وشعرت بالقوة النفسية والشجاعة لمواجهة الناس والتصدي لما قد يقذفوها به من ألفاظ بذيئة واتهامات باطلة. أو قد يكون قد تحدث إليها بالفعل، لأنه سيتحدث بعد قليل لقومها، كما سنرى.

ومن ثم ألهمها الله أن تهز النخلة لكي تسقط الرطب، أو أن الطفل نفسه هو من قال لها أن تهز النخلة. ووجود الرطب يعني أنها ولدت في أواخر الصيف وأوائل الخريف وهو وقت تحول معظم البلح إلى رطب: وَهَزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا. فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا. (مريم: 25-26)

كما أن ولادتها تحت النخلة تؤكد أنها كانت في مناطق صحراوية حارة.

وكلمة صوم في الآية تعني صوماً عن الكلام وليس عن الأكل. والصوم عن الحديث في اللحظات الأولى للقاء الناس سيمكن مريم من كسب الثقة بنفسها والتفكير فيما يقال، لتكون أكثر قدرة على الرد لاحقاً بعدما تهدأ هي وتزول لحظة المفاجأة عند الناس.

وقد فوجئ قومها كما هو منتظر، وأمطروها بالتساؤلات الملحة عن كيفية الحمل ومن كان السبب في حملها: فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهَا قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا. (مريم: 27)

فلم يُشهد عليها خلال حياتها السابقة بأي تصرف ينم عن فساد أخلاقها، كما أنها من أسرة محترمة، فكيف حملت بدون زواج: يَا أُخْتُ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا. (مريم: 28)

وقد ساعدها صمتها على جعل الناس يفرغون ما في جعبتهم من تهم وتساؤلات ثم تهدأ ثائرتهم، ولو ردت عليهم مريم بأي رد فسوف تؤجج عاصفة الغضب لديهم وقد يتجرؤون على مهاجمتها والإضرار بها: فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا. قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا. وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا. وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا. وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا. (مريم: 29 - 33).

والحمل بعيسى لم يستغرق تسعة أشهر كالمعتاد، بل حملت به أمه وولدت في خلوتها تلك. فقد خرجت لقضاء الحاجة، ورجعت وبين يديها مولود. ولو حملت به للمدة المعتادة التي تستمر تسعة أشهر، لما صدقها أحد أنها لم تن.

وإن كان عيسى تحدث في المهد فهذا يعني أن تلك المخلوقات المسئولة عن الحمل به، لديها القدرة على تنمية ذاكرة المولود وقدراته العقلية التي يكتسبها مع الزمن من كلام وتفكير وخلافه، بسرعة ليكون قادراً على التحدث بعد فترة بسيطة من مولده، كل هذا بأمر الله وقدرته.

ولو عرفنا أن عيسى ولد بعيد وفاة موسى بقليل، وهو ليس يسوع الذي تنتمي له المسيحية، وقد ولد عيسى في مصر فرعون، جنوب غرب جزيرة العرب، وليس في فلسطين. وولادته بهذه الطريقة الإعجازية، وحديثه في المهد وقدرته على الإخبار بما في بيوت الناس وكان يبرئ الأكمه والأبرص... ومعجزات أخرى. كل هذا لكي يثبت لبني إسرائيل أنه مرسل من الله ليصحح لهم ما أحدثوه في التوراة. لأن بني إسرائيل كانت لديهم قدرات سحرية هائلة، ومن ذلك العجل الذي صنعه السامري وأصبح يطلق خوار وكأنه عجل حقيقي، وكذلك سحرة فرعون.. لذا بعث فيهم موسى بقدرات تبدوا سحرية مثل قدرة عصاه ويده... الخ.

فجاء عيسى بشكل إعجازي يتلاءم مع ثقافة وأوضاع بني إسرائيل. ولو خلق عيسى في وقت ومكان مختلف، فلن يكون هناك حاجة لخلقه بهذه الطريقة.

وعيسى الذي حمل به وولد في يوم واحد، وتحدث في المهد، يعني أنه ليس بحاجة ليمر بطور الطفولة ثم الشباب ثم البلوغ والرشد، ليكتسب الحكمة، لأنه نطق بها وهو رضيع. لذا فالاحتمال هو أنه استمر يدعوا قومه منذ ولد، وقد يكون نما وكبر وشب بسرعة غير عادية حتى أصبح كهلاً (منتصف العمر).

ولو أن ما حدث هو أن عيسى تكلم في المهد وهو على شكل طفل وليد، ثم نما بسرعة غير طبيعية، حتى أصبح بهيئة رجل راشد عاقل، مع استمراره بدعوته، كونه لا يحتاج لا للخبرة ولا للحكمة، لأنه ولد وهو يتمتع بهما والدليل كلامه الحكيم وهو في المهد. في هذه الحالة، من يريد الإيمان سيصدق ويقتنع أنه يقول الحق، بينما سيدخل الشك آخرين، وسيبالغ آخرون برواية ما هو عليه وما يقوم به وكيف حمل به وكيف ولد، بقصص مختلفة.

وهؤلاء هم من سيوجد التربية المناسبة لنمو الغلو في شخص عيسى بين الأجيال اللاحقة، الذين لم يعرفوه شخصياً ولا موسى قبله، ولكنهم نشأوا على سماع قصص خيالية لميلاد عيسى وقدراته، لا يمكن أن تصدر إلا من الله، مثل شفاء المرضى وذوي العاهات. ولأن من نقل لهم هذه القصص، بدل أن يقول عن عيسى أنه كان يجعل من الطين على هيئة الطير ويطير وكأنه طائر. نقل للناس أن عيسى كان يخلق الطيور من لحم وعظم وريش حقيقية ويطير أمام أعين الناس.

عندها سيبدأ بعض الناس بالتساؤل: هل هو الله؟ هل هو إله مع الله؟ هل هو ابن الله؟

وهكذا ولد الاعتقاد في أن عيسى ابن الله، ثم تطور في أجيال لاحقة بضم مريم لتكون والدة الله الابن، ليكون هناك ثلاثة: الله الأب، الله الأم، والله الابن.

ونعود لآيات سورة مريم.

ثم تتحول السورة لمخاطبة قريش: وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ {36} فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ {37} أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ {38} وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ {39} إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ {40}.

والولد هنا ليس المقصود به عيسى، بل الملائكة التي تعتبرها قريش بنات الله، والصور دائماً تعنيها عندما تقول ما اتخذ الله من ولد. والآيات تقول: أن الله ليس له بنات وأنه الإله الواحد هو من يجب أن يعبد. ووعيد لكفار قريش من عذاب يوم القيامة.

وستعود آخر السورة للحديث عن زعم قريش هذا من أن الملائكة بنات الله، وذلك في (الآيات: 88-93) وتؤكد الآيات أن الملائكة عبيد الله وليسوا بناته.

ثم تتجه السورة للحديث عن إبراهيم: وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا {41} إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا {42} يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ

الْعِلْمَ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا {43} يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا {44} يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا {45} قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا {46} قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا {47} وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا {48} فَلَمَّا اعْتَرَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا {49} وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا {50}.

(الآية: 46) والد إبراهيم خيره بين أن يعتزله (يبتعد عنه ويخرج من قريته) أو سيرجم.

(الآيات: 47-49) بعد تهديد والده خرج إبراهيم من قريته. لأن الآية 49 تقول: فَلَمَّا اعْتَرَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا. وبعد أن خرج من قريته واستقر في المكان الذي هاجر إليه (مكة التي ستذكرها آيات أخرى) رزق بإسحاق ويعقوب.

لماذا لم يذكر إسماعيل مع أبيه وإخوته؟ قد يكون لأن المخاطب هنا هم بنو إسرائيل والذين لا يحملون مشاعر ود لإسماعيل (كما سنرى في سور قادمة).

ثم تتحدث الآيات عن موسى: وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا {51} وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا {52} وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا {53}. وفيها تأكيد على أن التكليم تم بجانب الطور الأيمن (الطور = الجبل). كما تؤكد الآيات أن هارون أخو موسى كلف معه كرسول لفرعون.

ثم تذكر الآيات إسماعيل وإدريس (الذي لا نعلم متى وأين أرسل): وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا {54} وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا {55} وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا {56} وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا {57} أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا {58}.

وكل من ذكر هنا رسل من ذرية آدم. بعضهم منه مباشرة وبعضهم ممن حمل مع نوح. وهذا دليل على أن آدم أبو الرسل المذكورين في القرآن، ودليل على أن نوح وقومه من نسل آدم. ودليل على أنه ليس كل الرسل من نسل نوح وقومه. وهو ما سنتبينه لاحقاً.

(الآية: 59) كأنها تتحدث عن سنة متبعة دائماً: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا}. فكل من يؤمن بالرسول تتحول أجيالهم اللاحقة عن الدين شيئاً فشيئاً إلى أن يتحولوا عن الدين تماماً ويتمسكوا بعقائد مبتدعة، إلى أن يرسل لهم رسول جديد ليعيدهم للدين الحق.

ثم تقدم السورة وعد للمؤمن وصور حسية لنعيم الجنة: إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا {60} جَنَّاتٍ عَذْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا {61} لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا {62} تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا {63}.

(الآية: 62) تقول: لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا. وهذه كناية على استمرار النعيم بلا انقطاع، وإلا فليس في الجنة صباح (بكرة) ومساء (عشياً) لأنه لا وجود لشمس في الجنة. وهذا يدل على أن الجنة عالم مختلف في كون آخر لم يخلق بعد.

(الآيتان: 64-65) تقول: {وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا} {64} رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} {65}. دليل على أسلوب القرآن الفريد.

فالآية 63 التي سبقت تتحدث عن نعيم الجنة الذي أعده سبحانه للمتقين، ثم في الآية 64 وكان المتكلم هم الملائكة دون أن يسبق ذلك أي مقدمات، وكأنهم يخبروننا أن تحركاتهم في الكون تتم تنفيذاً لأوامر الله جل وعلى، وكأنهم يحثون الرسول بالاستمرار لعبادة الله، بدل أن يكون المتكلم هو الله جل شأنه وتقول الآيات أن الملائكة لا تنزل إلا بأمرنا. وبطبيعة الحال الملائكة لا تخاطب الرسول وليس هناك آيات قرآنية قالتها الملائكة، لكنه أسلوب القرآن المميز.

وتدعو السورة قريش للتفكير العقلاني: وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسُوفَ أُخْرَجُ حَيًّا {66} أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا {67}.

الإنسان هنا المقصود به كفار قريش، كما ورد في سور سابقة. والآية تقول أن قريش المنكرة للبعث لو فكرت بخلقها لآمنت بقدرة الخالق على البعث.

(الآيات: 68-71) وعيد لمنكري البعث مع استمرار أسلوب القرآن الفريد: فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا {68} ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ

عِتْيَاً {69} ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا {70} وَإِنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا {71}.

فالأية 71 تقول: وَإِنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا. بدل أن تقول وإن منهم فالمخاطب كان الكفار، وكانت تخاطبهم بضمير الغائب في الآيات: 68-70 وفجأة يتحول الضمير إلى المخاطب. وهو ما جعل المفسرين والمحدثين يصورون الوضع وكأن كل الناس مسلمهم وكافرهم سيردون النار (يدخلونها على خفيف) وسيعبرها المسلم للجنة بينما يبقى الكافر. وهذا نتيجة للجهل بلغة القرآن الفريدة أو تجاهلها. فالحديث والمخاطب في الآيات: 68-71 للكافر، ولم يخاطب المؤمن إلا بعد ذلك في الآية 72: ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا {72}. ولأن الآية تبدأ بـ ثم ساعد في ترسيخ مفهوم المفسرين. وإلا فالمؤمن لن يدخل النار ولن يمر بها ولن يردّها، فالحساب سيقدر إما الجنة أو النار. ومن دخل النار فلن يخرج منها، كما ستؤكد ذلك سور قادمة.

(الآية: 73) قريش تسخر من المسلمين في مكة، كونهم مستضعفين وفقراء لا يملكون مال وجاه مثلهم. وكان المال والجاه هو ميزان للتقوى: وَإِذَا تُلُتِلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا {73}.

وبقية الآيات تنتقل من مخاطبة قريش لمخاطبة المسلمين مع وعد ووعد: وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَانًا وَرَثِيًّا {74} قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَن هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا {75} وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا {76} أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا {77} أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا {78} كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا {79} وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا {80} وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا {81} كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا {82} أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا {83} فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذًّا {84} يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا {85} وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِثَةً {86} لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا {87} وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا {88} لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا {89} تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا {90} أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا {91} وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا {92} إِنْ كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا {93} لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا {94} وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا {95} إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ

الرَّحْمَنُ وُدًّا {96} فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِئُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا {97} وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا {98}.

(الآيات: 77-80) تخبرنا أن أحد كبراء قريش من له ولد ومال، قال: إن كان هناك قيامة فسيهبني ربي مالاً وولداً كما في الدنيا. فهو من كبار القوم في مكة ويظن أن معايير الجاه الديني معتبرة عند الله.

(الآية: 97) الدعوة لا تكون إلا بالقرآن الذي ينزل بلغة القوم.

ثم نزلت سورة الإخلاص: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ {1} اللَّهُ الصَّمَدُ {2} لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ {3} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ {4}.

والسورة عبارة عن أربع آيات كلها تؤكد أن الله أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفء أو شبيهه، كرد على ظن قريش أن الملائكة بنات الله، كما ورد في الآيات: 35-40 من السورة السابقة.

((قد لا تكون الإخلاص بالضرورة قد نزلت بعد مريم مباشرة، لكن المؤكد أنها من سور هذه المرحلة، وقد جاءت للرد على مزاعم قريش أن الله بنات هم الملائكة)).

ثم نزلت سورة الكهف

وسنرى أن السورة تجيب على تساؤلات وجهها بني إسرائيل إلى محمد عن قصص يعرفونها في تراثهم، وكان هذا نوع من اختبار صدق محمد الذي يقول أنه رسول من الله ويتلوا قصصاً عن تاريخهم. (أهل الكهف، موسى والفتى، وذو القرنين. وهذه الأحداث وقعت في جنوب غرب جزيرة العرب: الموطن الأصلي لبني إسرائيل).

تبدأ السورة بالتأكيد على أن القرآن غير ذي عوج، كاستمرار للتأكيد على أن القرآن حق، وهو ما يعني أن القرآن هو الوسيلة الوحيدة للدعوة. مع وعيد للكافر ووعد للمؤمن: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا {1} قَيِّمًا لِّيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا {2} مَا كُنْتُمْ فِيهِ أَبَدًا {3}.

(الآيتان: 4-5) امتداداً لما في سورة مريم والإخلاص تتوعد السورة هنا قريش التي تقول أن الملائكة بنات الله: وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا {4} مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِابَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا {5}.

وتخاطب السورة محمد قائلة ألا تذهب نفسك عليهم حسرات، كونهم لا يرون الحق ويصرون على الكفر: فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا {6}.

الآية تظهر الجانب الإنساني النبيل عند محمد، فهو يتحسر على قومه ويتمنى لو يهتدوا لينقذوا أنفسهم.

(الآية: 7-8) تؤكد أن ما في الدنيا زينة زائلة، والأرض ستنتهي: { إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } {7} وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا } {8}.

(الآيات: 9-26) قصة تروي ما حدث لأصحاب الكهف، موجهة إلى بني إسرائيل لأن القصة معروفة لديهم، ولا تهم قريش: أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا {9} إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا {10} فَضَرْبَنَا عَلَى أَدَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا {11} ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا {12} نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى {13} وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا {14} هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا {15} وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا {16} وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَرَاوُرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا {17} وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا {18} وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ ثِيَابًا وَبَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا {19} إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلَحُوا إِذَا أَبَدًا {20} وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ

مَسْجِدًا {21} سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةً رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةً سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةً وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا {22} وَلَا تَقُولَنَّ لِسَيِّءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا {23} إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَانْذَكِرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا {24} وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا {25} قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا {26}.

وقصة الكهف حدثت في جنوب غرب جزيرة العرب، وليس لها علاقة بالاسكندر الأكبر أو بما يحاول بعض المستشرقين ترويجه أن محمد اقتبس القصة من خرافة سريانية كانت شائعة قبل الإسلام. وهذه الخرافة لو بحثت عنها في كتب المسيحيين فلن تجدها ولا في كتب اليهود. لكنهم يقولون أنها (كانت) شائعة في المسيحية المبكرة والقرون الوسطى، مع أن كتب المسيحيين الحالية لم تتغير عما كانت عليه منذ القرن الرابع الميلادي.

والخرافة السريانية ليس لها نص سرياني مفرد يتضمن قصتها كاملة. وأقدم مخطوط عنها هو المخطوط الفاتيكانى السرياني برقم 2117 الذي يرجع للقرن السابع أو الثامن الميلادي (أي بعد انتشار الإسلام في كل الشرق الأوسط). نتحدث عن سبعة رجال من إفسس – التي تقع في أقصى غرب تركيا وعلى بحر إيجه جنوب إزمير الحالية. ولعل المسيحي الذي اختلق القصة اقتبسها من القرآن وحوورها لتتفق مع ما يريد. وليس القرآن هو من أخذ القصة عن رجل في أقصى غرب تركيا ويستحيل أن يكون له علاقة أو اتصال بمكة. وقصة أهل الكهف لا تخاطب قريش بل تخاطب بني إسرائيل يثرب، والذين لا يهمهم ما حدث في أقصى غرب تركيا. كما أنهم لو لم يكونوا يعرفون ذو القرنين لاحتجوا وكذبوا محمداً فيما قال حولها.

(الآيتان: 23-24) تخرجان عن سرد القصة وتتجهان لمخاطبة محمد، قبل أن تعود الآيات لإكمال قصة أهل الكهف، مثال آخر لأسلوب القرآن. والآيتان يفرضان ضرورة أن يقرن كل عمل يعتزم المرء القيام به بمشيئة الله، من باب إسناد كل ما للمخلوق للخالق. كما تفرض أن يذكر الله عند النسيان، لأن الذكر والتسبيح يعمل على تهدئة الأعصاب، وإذا هدا المرء كان تذكره أسهل.

(الآيات: 27-29) تخاطب محمد بأن يستمر في التبليغ بتلاوة الوحي (القرآن) وأن يصبر هو من معه على الأذى النفسى، وألا يفتن بمباهج الحياة التي يملكها رجال من قريش فهي مجرد زينة دنيوية زائلة زائلة: وَأَنْتُمْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ

مُتَّحِدًا {27} وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا {28} وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا {29}.

دليل على أن القرآن وحده يكون التبليغ. ودليل على أن الدين خيار شخصي ولا إكراه.

(الآيات: 29-31) وعيد للكافر ووعد للمؤمن، مع صور حسية لما في النار وفي الجنة للترهيب والترغيب: وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا {29} إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا {30} أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا {31}.

السندس والإستبرق أنواع من الأقمشة المعروفة في مكة في تلك الفترة، والمرجح أن رجال قريش (التجار) في رحلاتهم لشراء البخور واللبان والبحارات من جنوب غرب الجزيرة وبيعه في بلاد الشام يشترون هذه الأقمشة ويجلبونها لمكة. ولهذا فهي تحمل أسماءها التي تعرفها بها قريش، والتي قد تكون هي أسماؤها في البلاد التي أتى بها منها.

ثم تتوجه الآيات بالخطاب موجه لقريش للعبارة: وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا {32} كُلَّتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا {33} وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا {34} وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا {35} وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا {36} قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا {37} لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا {38} وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ ثَرَنِي أَنَا أَقَلُّ مَالًا وَوَلَدًا {39} فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا {40} أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا {41} وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا {42} وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا {43} هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا {44}

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا {45}.

فليست نعم الدنيا باقية وهي إلى زوال مهما بدت براقة متماسكة. لذا يجب ألا ينسينا الاهتمام بالدنيا أمور الآخرة الباقية.

النهر في القرآن يعني جدول الماء أو الساقية بعرفنا: {كُلُّتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا} {33}. نهراً في الآية يعني الجمع (أنهاراً) والنهر - بتعريفنا الحالي - من المستبعد أن يجري داخل مزرعة من مزارع تلك الأزمنة الصغيرة. لكن السواقي والجدول هي ما تشتهر به مزارع جزيرة العرب حتى اليوم.

(الآية: 45) أيضاً تخاطب قريش في نفس مسار الآيات السابقة لتؤكد أن كل مباحج الحياة الدنيا إلى زوال، وأن العمل للآخرة هو ما يجب أن يكون لأنها باقية.

(الآية: 46) الخطاب في هذه الآية موجه للرسول: الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً. وهي دليل على أن الرسول فترة نزول السورة لا يملك مالاً وفيراً كما كثير من رجال قريش، ولا يملك أثاثهم ومتاعهم، كما أنه لم يرزق بذرية. والآية تشجعه وترفع من معنوياته كبشر يشعر بالانجذاب لمتاع الدنيا ولأن يكون لديه أموال وذرية كانت هي المعيار للجاه في ذلك الزمان.

ودليل قوي على أن الرسول لم يكن غنياً، وهو ما ينفي ما روجته كتب الأخبار أنه تزوج سيدة أعمال (خديجة) وأنها لم تكن غنية. ودليل قوي آخر على أن الرسول لم يرزق منها بذرية، سواءً كن إناث أو كانوا ذكور.

(الآيات: 47-49) تتوعد قريش بيوم القيامة: وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا {47} وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا {48} وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا {49}.

والآيات تدم صوراً حسية لانهيار الكون، وصور حسية لبعثهم يوم القيامة، وصورة حسية للحساب بناءً على صحيفة الأعمال التي وصفت بالكتاب الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

وتتحول الآيات بالخطاب للمستضعفين من قريش والبدائية عن خلق آدم: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا {50} مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا {51} وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَوْبِقًا {52} وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنْهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا {53}.

ذرية إبليس لا تعني هنا الأولاد، بل تعني أتباعه ومن يخدمه منهم في ضلال غيرهم (وفي هذا إشارة للكبراء من قريش الذين يضلوا مستضعفيهم وعبيدهم معهم).

الآية 51 تؤكد أن هؤلاء الكبراء مضلين (لغيرهم = المستضعفين).

والآيتان التالية 52 ، 53 تصور موقف التابع (الكبراء) والمتبوع (المستضعفين) يوم القيامة وأنهم سيتشاركون في النار.

(الآيات: 54-55) تقول أن القرآن كاف للهداية لو رغبت قريش، لكنها لن تؤمن، لأنها تبعت سنة سارت عليها كل الأمم تتمثل في أن من لا يؤمن عند سماع الحق لن يؤمن بعد ذلك مهما رددت على مسامعه: وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا {54} وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا {55}.

(الآيات: 56-59) كل الرسل مكلفين بالتبليغ وليس عليهم هداية الناس: وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيَجَادِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا {56} وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا {57} وَرَبُّكَ الْعَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا {58} وَتِلْكَ الْفُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا {59}.

وسيبقى الكافر يجادل لدحض الحق. ومن لم يؤمن فلن يؤمن أبداً. الآية: 58 دليل على أن الكافر لن يحل به العذاب في الدنيا لأن الحساب والعقاب في الآخرة.

الآية: 59 تؤكد أن من أهلك من الأمم السابقة أهلكوا بسبب كفرهم ولو آمنوا لابتعدوا عن مكان إقامتهم مع رسولهم ومن آمن ولنجا من الكارثة الطبيعية التي أهلكتهم. أي أن البركان كان سيقع في منطقة قوم لوط، لكن لو آمنوا لخرجوا مع لوط ومن آمن. وبما أنهم لم يؤمنوا خرج لوط ومن معه وابتعدوا عن القرية قبل أن ينور البركان الذي أهلك قومهم. وهكذا كل الأمم السابقين الذين أهلكوا. فالمعجزة هي ليس في هلاك الكافرين ولكن في نجاة الرسول ومن معه من كارثة كانت ستقع بأي حال.

(الآيات: 60-82) المخاطب هنا بني إسرائيل يثرب تخبرهم الآيات عن قصة من القصص التي يعرفونها في تراثهم، ولا تعرفها قريش: وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً {60} فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً {61} فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِقَتَاهُ إِنِّي أَخَذْتُكَ غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً {62} قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً {63} قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً {64} فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً {65} قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْداً {66} قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا {67} وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا {68} قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا {69} قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا {70} فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا {71} قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا {72} قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا {73} فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا {74} قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا {75} قَالَ إِنْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا {76} فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا {77} قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا {78} أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا {79} وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا {80} فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا {81} وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ

أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا {82}.

والآيات تتحدث عن رجل اسمه موسى. وليس بالضرورة أن يكون موسى رسول الله. الملفت في القصة هو كيف عرف الفتى الذي اصطحب موسى بأمر الملك الذي يسلب السفن، وكيف سمح لنفسه بقتل الغلام، وكيف عرف بأمر الكنز. وظاهرياً كأن الفتى يعلم الغيب وموكل من الله بإصلاح أحوال الناس، وهذا مستبعد بطبيعة الحال.

ويمكن القول أنه عرف عن الملك الظالم بينما لم يعرف أصحاب السفينة بذلك. كما يمكن القول أنه عرف من والد الغلامين أنه أخفى المال في الجدار. لكن قتله للغلام أملاً في أن يعوض الله والديه المؤمنين بغلام صالح غيره، فهذا تعد وتجن وجريمة. والقرآن عندما يروي قصة تاريخية لا يتحدث عما يجب أن يكون وعن السيئ فيها والحسن، ولكنه يرويها كما حدثت. ففي سورة لقمان سنرى أن لقمان قال: إن أنكر الأصوات لصوت الحمير. ونقلها القرآن كما قال لقمان، وليس لتقرير أن صوت الحمار منكر. فالله هو من خلق صوته جهوري ليتلاءم مع حياته ومناداته لقرينه. وهو ليس منكر في الخلق، ولكنه قد يزعج البشر. فلقمان أزعجه الصوت لأنه عال، فهو منكر من باب الإزعاج، وليس منكر بالمعنى السيئ. وكما قال العزيز عن امرأته: إنه من كيدكن، إن كيدكن عظيم. فهو يعبر عما حدث في تلك اللحظة، حيث حاولت المرأة أن توحى أنها مظلومة، ولكنه اكتشف أنها هي من لاحق يوسف، فعبّر عما يشعر به تلك اللحظة، لكن هذا لا يعني أن النساء كيدهن عظيم للمعنى السيئ للكيد، ولم يؤكد القرآن هذا.

ونعود لقصة الفتى الذي قتل الغلام، فهو تصرف بإحياء تقديري من عند نفسه ولا يمثل الله في ذلك.

(الآية: 77) تذكر موسى والفتى: {فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً {77}.

ثم تقول السورة عن نفس الموضوع: وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزُ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا {82}.

فكيف تكون المدينة داخل القرية؟

هذا يعني أن "المدينة" لا تعني البلدة الكبيرة، كما نفهمها اليوم. بل تعني مكاناً يمكن أن يكون داخل البلدة. والمدينة بمفهومنا الحالي هي "القرية" بمفهومنا الحالي. وقد كتب عن هذا بالتفصيل في "أحسن القصص".

(الآيات: 83-98) قصة ذو القرنين التي لا بد أنها وقعت في جنوب غرب جزيرة العرب، لأنها معروفة في تاريخ بني إسرائيل عندما كانوا يعيشون هناك: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا {83} إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا {84} فَاتَّبَعَ سَبَبًا {85} حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْتَ مُعَذِّبٌ وَإِنَّمَا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا {86} قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا {87} وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا {88} ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا {89} حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا {90} كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا {91} ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا {92} حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا {93} قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا {94} قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا {95} أَتُونِي زَبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ أَتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا {96} فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْطَاعُوا لَهُ نَقْبًا {97} قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا {98}.

وليس له علاقة بالاسكندر المقدوني (ت 323 ق م) الذي عاش في بلاد مقدونيا الأوروبية وقام بغزوات باتجاه الشرق حتى وصل إلى الصين.

(الآية: 86) ذو القرنين من منطقة داخلية بعيدة عن البحر (أي أن موطنه الأصلي يقع في سفوح جبال السروات الشرقية) وقد توجه غرباً حتى وصل البحر (الأحمر) ولأنها أول مرة يرى البحر فقد كان منظر الشمس وهي تغرب، وسط أشعتها الحمراء القريبة من لون النار، التي تتسلل بين السحب قبل أن تنغمس في الماء وكأنها تغرب في عين ماء حمئة (حارة) ظناً منه أن الشمس بالفعل تغطس في الماء فتسخنه. والقرآن لا يقرر هذا بل ينقل ما شعر به ذو القرنين.

(الآية: 90) ثم رجع قافلاً باتجاه الشرق، فلما طلعت عليه الشمس من بين جبال اليمن الشاهقة أمامه – ظن أن الشمس بالفعل تخرج من الأرض من بين تلك الجبال.

وفي تلك المنطقة الجبلية وجد أقوام "لا يكادون يفقهون قولاً" أي لا يفهمون لغة ذو القرنين إلا بصعوبة (الآية:93).

(الآيات:94-97) تروي أن هؤلاء القوم الذين بالكاد يفهمون لغة ذو القرنين، كانوا مستقرين (مزارعين) وهو ما يعني أنهم في أودية أعالي السراة. وقد طلبوا من ذو القرنين أن يبني لهم سداً بينهم وبين قبائل أخرى تسمى يأجوج ومأجوج، وهي قبائل همجية وغير مستقرة تغير على مناطقهم وتسلبهم محاصيلهم. وقد قام ذو القرنين ببناء سد من الحديد المنصهر والحجارة.

(الآية:98) الكلام لازال لذي القرنين: " قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا". فذو القرنين المؤمن ينسب كل ما قام به لتوفيق الله ورحمته، وأن السد سيبقى إلى أن يشاء الله ويتهدم. والآية تمثل نهاية قصة ذو القرنين.

موضوع جديد حيث تخاطب السورة قريش الكافرة: وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا {99} وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا {100} الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا {101} أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِّن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِّلْكَافِرِينَ نَزُلًا {102}.

وتقدم الآيات صوراً حسية للقيامة، بعد أن ينشأ كون ذلك العالم (نفخ في الصور. الصور=الكون). وتتوعدهم بجهنم.

(الآية:101) تغطية العيون كناية عن الإعراض عن الدين.

(الآية:102) وعيد للمستضعفين الذين يتبعون ساداتهم في الكفر.

(الآيات:103-106) وعيد لمن يكفر ويسخر بالرسول: قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا {103} الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا {104} أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا {105} ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوعًا {106}.

(المقصود قريش).

(الآيات:107-108) وعد للمؤمنين: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا {107} خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا {108}.

وتختتم السورة بالقول: قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لَّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا {109} قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا {110}.

جواب لتساؤل من قريش على ما يبدوا قد يكونوا سألوا محمد متى سينتهي عن تلاوة الوحي. وجواب آخر عن تساؤلهم المتكرر لمحمد عن إخبارهم بموعد البعث وأن محمد لا يملك الجواب وما هو سوى رسول. دليل على أن الإيمان خيار شخصي ولا إكراه في الدين.

ثم نزلت سورة الزخرف

حم {1} وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ {2} إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ {3} وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ {4}.

والبداية تأكيد على أن القرآن (أداة الدعوة) حق ونسخته الأصلية محفوظة في آلية إلهية سميتها السورة "أم الكتاب" أي أصل الكتاب أو الوحي أي النسخة الأصلية، وسنجد أن سوراً أخرى ستذكر هذه الآلية بألفاظ أخرى.

(الآية:5) تقول أنه ليس من عدل الله المطلق أن يغفر لكم شرككم يا قريش: أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ {5}.

ثم تقول الآيات أن قريش سلكت نفس سنة الأولين التي سارت عليها أمم سابقة كفرت فأهلكت: وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ {6} وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ {7} فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ {8}.

وتوجه السورة دعوة عقلانية: وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ {9} الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ {10} وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ {11} وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ {12} لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ {13} وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ {14}.

(الآيات:15-19) قريش تقول أن الملائكة بنات الله، ولو بشر أحدهم بمولود أنثى يسود وجهه ويكظم غضبه (كناية عن كرهه للأنثى) فكيف ينسبون لله ما لا يرضونه لأنفسهم: وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ {15} أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ {16} وَإِذَا

بَشَرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ {17} أَوْ مَنْ يُنشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ {18} وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ {19}.

هذا لا يعني أن الأنتى أقل قدراً لكن القرآن عادة ينقل ما يشعر به أو يقوله من تتحدث عنه الآيات. فقريش هم من يكره المرأة وهم من يراها أقل قدراً، وليس الله الذي خلق منها زوجها أي متساويين. ومن ذلك ما ورد في سورة يوسف: {فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ {28}}. فمن يعتقد أن كيد النساء عظم ليس الله ولكنه العزيز الذي اتضح له أن امرأته هي من دبر الإيقاع بيوسف.

والآيات تقول أن قريش تظن أن الملائكة جنسها إناث، والحقيقة أنه ليس لهم جنس (بمعنى ليس فيهم ذكور وإناث) لأنهم لا يتناسلون.

(الآيات: 20-25) تتحدث عن قريش وتمسكهم بعبادة الأصنام وعدم الاستجابة لعبادة الله: وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ {20} أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ {21} بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ {22} وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ {23} قَالَ أُولَٰئِكَ جُنُودُكُمْ بِأُھْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ {24} فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ {25}.

وقريش في موقفهم هذا قد سلخوا نفس سنة سارت عليها أمم سابقة أهلكت. وتمسكت قريش – كما الأمم السابقة – بعبادة الأصنام لأنها تمسكت بالموروث. والتمسك بالموروث هو الآفة التي تمنع الناس من إتباع الحق في كل زمان ومكان.

(الآيات: 26-28) إشارة لإبراهيم وكيف هداه عقله فقط للحق ونبذ موروث قومه: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ {26} إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ {27} وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ {28}.

دليل على أن العقل آلية أودعها الخالق في كل إنسان بحيث تكفي وحدها للتعرف على وجود الله وقدرته على إعادة الخلق.

(الآيات: 29-32) تقول أن قريش لم يأتها رسول قبل محمد، وعاشت لمدة طويلة قبل مجيء الحق: بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ {29} وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ {30} وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ {31} أَهُم يَفْسُمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ {32}.

(رسالة محمد = القرآن) ، وهو ما تؤكد سور أخرى، منها: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ} {3} السجدة.

وترد الآية 32 على اعتراض قريش على اختيار محمد كرسول، قائلة: الناس يتفاضلون فيما بينهم، فهذا يبرز في مجال ويتفوق فيه على غيره، وهذا في مجال آخر وآخر... وهكذا، أما الرسالة فالله يكلف بها من يشاء.

ولما جاء محمد قالوا عن القرآن أنه سحر، ولو كان من الله لنزل على أحد سادة قريش أو الطائف (القريتين). الآيتان: 30-31 تؤكدان الدعوة كانت بالقرآن وبس.

(الآيات: 33-35) تقول أن الدنيا وزخارفها ومتاعها لا قيمة له ولو أعطي الكافر كل ما فيها فالآخرة أبقى: وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوبِتَهُمْ سَفَافًا مِّن فُضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ {33} وَلِيُوبِتَهُمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ {34} وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ {35}.

(الآيات: 36-39) تقول أن المولى أو العبد لو أعرض عن الحق وتبع سيده القرشي في الكفر فسيذهب معه للنار يوم القيامة: وَمَن يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ {36} وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ {37} حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ {38} وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُم فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ {39}.

والشيطان هنا جاء بصيغة المفرد للجمع، بدليل قوله وإنهم ليصدونهم. فهناك شياطين عبر عنهم بشيطان، والمقصود بهم السادة المشركين من قريش.

ثم تتوجه السورة بالخطاب لمحمد: أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ {40} فَاِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ {41} أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ {42} فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {43} وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ

وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ {44} وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ {45}.

وتول الآيات أنك يا محمد لست مسئولاً عن هدايتهم (تصفهم الآية 40 بالصم، لأنهم لا يصغون للقرآن. والعمي، كناية عن عدم رؤيتهم لعظمة الخلق الدالة على قدرة الخالق على البعث).

(الآيتان: 41-42) تقول لمحمد أنك قد تموت أو تقتل. لكن لو مت أو قتلت فسننتقم من قريش (تهلك)، وإن بقيت حياً فقد تشهد نهايتهم.

(الآية: 43) تطلب من الرسول أن يتمسك بالوحي (القرآن) وأنه هو الحق ولا يلتفت لما تنثيره قريش من شكوك.

(الآية: 44) تقول أن القرآن ذكر لك ولقومك، مع أنه لكل الناس، لأن الحديث موجه لقريش هنا. (دليل على أن الدعوة بالقرآن فقط).

(الآية: 45) مثال على أسلوب القرآن الفريد: فهي تطلب من محمد أن يسأل الرسل السابقين هل أمر الله بعبادة غيره للرد على قول قريش {وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ {20} الزخرف.

والرسول لا يستطيع أن يسأل الرسل لأنهم ماتوا منذ مئات وآلاف السنين، ومع ذلك طلبت الآية من محمد أن يسألهم. وفهمنا أن المقصود هو أنه لم يسبق أن رضي أو أباح الله لبشر أن يعبد صنماً أو آلهة غير الله. ولو حاولنا محاكاة هذا الأسلوب فلن نستطيع. ولو كتب أحدنا لآخر، الرجاء سؤال جدك متى مات؟ فسيظهر السائل بمظهر الأحمق، والسؤال سخيفاً، لأن المسئول قد مات منذ أمد ولا يمكن سؤاله.

(الآيات: 46-56) تخبر بني إسرائيل عن موقف فرعون من موسى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ {46} فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ {47} وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ {48} وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ {49} فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ {50} وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ {51} أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ {52} فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ {53} فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا

فَاسِقِينَ {54} فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ {55} فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَافًا وَمَثَلًا
لِّلْآخَرِينَ {56}.

من يهتم بالتعرف على قصة موسى وبني إسرائيل كاملة عليه أن يجمع كل ما قيل في القرآن ثم
يقوم بالمونتاج بحيث يرتب الآيات حسب تسلسل الأحداث، وسيتمكن من كتابة القصة بكمالها.

(الآيات: 57-59) أول ذكر في القرآن لحمل وولادة عيسى وردت في سورة مريم، وبرغم أن
الآيات موجهة لبني إسرائيل إلا أن الرسول قرأ السورة على قريش، فأحدثت تساؤلاً عندهم،
تخبرنا به هذه السورة في قوله: {وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ} {57} وَقَالُوا
أَلِلَّهِتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ} {58} إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ
وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ} {59}.

(الآيات: 60-62) تخاطب قريش وترد على طلبهم إرسال ملائكة للتصديق برسالة محمد، وتقول
إن الله قادر على ذلك ولكنه لن يحدث. فمن شاء فليؤمن بما يسمع من القرآن، ومن شاء فليكفر:
وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ} {60} وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ
هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} {61} وَلَا يَصْدَنْكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} {62}.

ثم تتحدث السورة عن موقف بني إسرائيل من دعوة عيسى: وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ
جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا} {63} إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي
وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} {64} فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ
يَوْمِ الْيَوْمِ} {65}.

والآيات دليل على أن عيسى لم يأت برسالة خاصة ولكنه جاء فقط ليبين لبني إسرائيل ما اختلفوا
فيه مما ورد في التوراة. ودليل على أن من اختلف في أمر عيسى كانوا ممن جاء بعد موته ولم
يروه، وفيهم ولدت فكرة تأليه عيسى أو اعتباره ابن الله.

وتختتم السورة بمخاطبة قريش: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} {66}
الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ} {67} يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ
تَحْزَنُونَ} {68} الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ} {69} ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ
تُحْبَرُونَ} {70} يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهُيهِ الْأَنْفُسُ وتَلَذُّ الْأَعْيُنُ
وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} {71} وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} {72} لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ
مِنْهَا تَأْكُلُونَ} {73} إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ} {74} لَا يُقَرَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ

مُبْلِسُونَ {75} وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ {76} وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَّا كُنْتُمْ {77} لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ {78} أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ {79} أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتَئِبُونَ {80} قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَّا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ {81} سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ {82} فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ {83} وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ {84} وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ {85} وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ {86} وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ {87} وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ {88} فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ {89}.

ومخاطبة قريش في الآيات يبدأ بتحذيرهم من أن الساعة قريبة جدا، لأن كل من مات فسيشعر أنه بعث بعد لحظات، لأن ذاكرته ستتوقف عن تسجيل الوقت. وعندما تقوم الساعة فسيفرح المؤمنون.

يلي ذلك تقديت صور حسية لنعيم الجنة. ووعيد للكفار بالنار.

الآية 76 تؤكد أن الإنسان هو من يختار طريقه للإيمان أو الكفر، وليس هناك قدر مسبق، وهذا متوافق مع عدل الله المطلق. والآية 78 تقول أن الحق قد سمعته قريش لكنها اختار الكفر.

(الآية: 77) "وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَّا كُنْتُمْ". مالك اعتبره المفسرون خازن جهنم والمسئول عنها. وكان لجهنم موظف أو "حارس أمن" مسئول عنها. وهو تخيل بشري لما هو معروف لديهم. فالمفسر الذي قال بهذا يعرف أن لكل شيء حارس ومسئول وتخيل أن النار مكان مسور له باب يقف عليه حارس كحراس السجون يمنع الفرار منها. والآية لا تقول أن "مالك" كما قال المفسرون، ولعل الآية لا تعدوا عن كونها كناية عن أن من يدخل النار لن يخرج منها، والحديث هنا تصويري مثل تصوير جهنم وكأنها تتحدث، كما ورد في سور سابقة.

(الآية: 80) صورة حسية أخرى لتسجيل الأعمال.

(الآيات: 81-83) ترد على قريش التي تقول أن الملائكة بنات الله، وتقول لمحمد قل لهم أنه على افتراض أن له بنات كما تزعمون فسأعبده، وهو افتراض لا وجود له. وتقول للرسول دعهم يخوضوا ويلعبوا "كناية عن إغراضهم عن الآخرة واهتمامهم بالدنيا" حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون "القيامة".

(الآيات: 84-89) دعوة عقلانية. قوله: "وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله" تعني أنه لا يخفى عليه شيء من خلقه ولا تعني تعدد الآلهة (كناية) ولا تعني أنه يتنقل سبحانه وتعالى، ولا تعني أن هناك أكثر من إله. والآية الأخيرة تظهر أن الضغوط على الرسول تزايدت وذلك لأنها تأمره أن يصفح.

ثم نزلت سورة غافر

في وقت تزايدت الضغوط على الرسول ومن آمن معه، ولا بد أن هذا بسبب تغير حدث في الساحة. وبما أن القرآن بدأ في هذه المرحلة بمخاطبة كل الناس، وبني إسرائيل، والمستضعفين في مكة، فلا بد أن الدعوة لاقت قبولاً بين أناس من خارج مكة وثنيين أو من بني إسرائيل يثرب، أو من داخل مكة بين المستضعفين، وهذا سيثير قريش. فدخل العبيد والموالي الإسلام يعني شل الخدمات في مكة، كونهم يقومون بكل الأعمال الخدمية. وإيمان أناس من خارج مكة يعني تمدد الإسلام وقوة لمحمد ومن معه قد يؤدي لخروجه عن سيطرة قريش. وكلا الحالين يمثلان تطوراً لا يرضي قريش ويزعجها ويسبب لها الهياج. وهو ما ترجم على شكل مضايقات وجدال وسخرية لمن أسلم، ومحاولات لمنع الغير من الدخول في الإسلام.

والسورة تخاطب قريش، وبني إسرائيل، والمستضعفين، كما سنرى.

بداية السورة تؤكد على أن القرآن – أداة التبليغ – وحي من الله، كما في بدايات سور سابقة: حم {1} تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ {2} غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ {3}.

(الآية: 4) تشير إلى نشاط قريش في جدال الرسول كلما حاول تلاوة القرآن عليهم أو على غيرهم، في محاولة لتعطيل الدعوة والتشويش عليها وصد الناس عنها. وهذا نشاط جديد، ظهر بعد تحول المخاطب: مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ {4}.

(الآية: 5) تقول لمحمد أن جدالهم لك وصدهم غيرهم عن الاستماع لك، حدث لرسلك قبلك: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْنَاهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ {5}.

(الآيات: 6-12) وعيد للكافر ووعد للمؤمن بأسلوب الكناية حيث تصور مخلوقات تحمل العرش يدعون الله أن يغفر للمؤمنين ويدخلهم الجنة. وبطبيعة الحال دخول الجنة بالإيمان والعمل الصالح

وليس بدعوة من مخلوق مؤمن: وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ {6} الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ {7} رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {8} وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ {9} إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ {10} قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ {11} ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ {12} .

وتتعدد الآيات الكفار.

والآية 11 تقول: قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ.

الحياة مرتين واضحة: واحدة حياة الدنيا، والثانية يوم القيامة. لكن الموت مرتين غير واضحة – بالنسبة لي – فقد تكون ميتة للانتقال من الدنيا للأخرة وميتة معنوية بدخول النار. أو قد تكون الميتة الأولى قبل الخلق والثانية هي الميتة المعروفة. أو قد تحمل معنى آخر.

(الآيات: 13-22) وعد للمؤمنين القلة في مكة، ولقریش وعيد ودعوة عقلانية للتفكير: هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ {13} فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ {14} رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْزِلَ يَوْمَ التَّلَاقِ {15} يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لَّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ {16} الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ {17} وَأَنْذَرُكُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطِمِينَ مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ {18} يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ {19} وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ {20} أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ {21} ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ {22} .

الآية 17 دليل على أن الحساب سيكون بناءً على سجل الأعمال، وبآلية، ولا يخضع للعواطف.

(الآيات: 23-46) عموماً تتحدث عن موسى وفرعون، وهي موجهة لبني إسرائيل. في نفس الوقت هي تعطي أمثلة لواحد من أساليب القرآن المتمثل بالحديث عن عدة مواضيع في نفس الوقت وبشكل متداخل. بحيث تتحدث الآيات عن موضوع ثم تنتقل لموضوع آخر، ثم تعود للموضوع السابق ثم تتحدث عن موضوع ثالث... وهكذا، كما تحوي عدة أدلة على مواضيع مختلفة: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ {23} إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ {24} فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ {25} وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ {26} وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ {27} وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ {28} يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنَ بَاسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ {29} وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ {30} مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ {31} وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ {32} يَوْمَ تُثْلَوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ {33} وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ {34} الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبِيرٌ مَفْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُنْكَبِرٍ جَبَّارٍ {35} وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ {36} أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ {37} وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ {38} يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ {39} مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ {40} وَيَا قَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ {41} تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْعَفَّارِ {42} لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ {43} فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَؤُضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ {44} فَوَقَاةَ اللَّهِ سَيِّئَاتٍ مَا مَكْرُوهًا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ {45} النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ {46}.

(الآية:26) "وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ". الحكام الطغاة لهم منطق واحد وإن اختلف المكان والزمان. فموسى يطالب بحقوق مشروعة لبني إسرائيل، فما كان من الطاغية إلا أن قلب الحقائق، وأطلق على موسى لقب المفسد (الإرهابي الضال) ليسهل على الرأي العام قبول تصفيته.

(الآية:31) دليل على أن نوح وعاد وشمود قبل موسى. ودليل على أن مصر فرعون تقع في نفس المنطقة التي عاش فيها نوح وعاد وشمود، وفرعون وقومه يعرفون تلك الأمم.

(الآية:34) يوسف ابن يعقوب كان رسولا.

(الآية:35) تخرج عن الحديث عن فرعون إلى مخاطبة قريش " الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ " وهو ما يظهر نشاط قريش الجديد الذي بدأ من هذه المرحلة والمتمثل بجدال الرسول والتشويش عليه كلما هم بتلاوة القرآن عليهم أو على غيره، كنوع من الصد عن الدين.

ثم تعود الآية: 36 وما بعدها لإكمال الحديث عن فرعون.

(الآيتان: 38-39) عود لكلام مؤمن آل فرعون الذي يكتم إيمانه.

(الآية:40) هذه الآية لا تنتمي للحديث عن مؤمن آل فرعون ولا إلى فرعون، وإنما تتحدث عن موضوع آخر يتمثل بأن الإنسان هو من يختار لنفسه الجنة أو النار بما تقدم يده. كما أنها دليل على أن الرجل والمرأة متساويان كلياً أمام الله، والمطلوب منهما من أعمال واحدة، وليس هناك تشريعات خاصة بالرجل أو بالمرأة. وبناءً عليه يمكن القول أنه ليس هناك جنة للجنة أو نعيم في الجنة للرجل مختلف عن المرأة.

(الآيات: 41-46) عود للحديث عن مؤمن آل فرعون. والآيتان: (45-46) مثال على أسلوب آخر للقرآن، حيث أن الخطاب يأتي بصيغة الماضي للحديث عما سيكون في المستقبل: {فَوَقَّاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ} {45} النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} {46}

المؤسف هو أن سلف المفسرين والمحدثين قالوا أن الآية 46 دليل على عذاب القبر، برغم أن الآيتان تتحدثان عما سيكون بصيغة ما كان. فمؤمن آل فرعون سيقفه الله سيئات ما مكروا وسيحقيق بآل فرعون سوء العذاب وسيعرضون على النار. ويعرضون على النار في القرآن، يعني يعذبون فيها، كما في سور أخرى.

وهذا بعض ما سبق ونشر على الفيس بوك حول هذا الموضوع: ورد في سورة غافر ضمن الحديث عن فرعون، ما يلي: فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّا مَكَّرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ. النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ. (غافر: 45-46) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا {60} جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا {61} لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا {62} تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا {63} مريم. إذا، قوله عن آل فرعون أنهم يعرضون عليها غدوًّا وعشيًّا، وعن أهل الجنة بكرة وعشيًّا، لتقريبها من ذهن القارئ فقط، ليقول أن عذاب آل فرعون ونعيم أهل الجنة مستمر. ويعرضون على النار تعني في القرآن يعذبون فيها، ومن ذلك قوله تعالى: وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِّنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّنْ سَبِيلٍ. وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ. (الشورى: 44-45). فيعرضون عليها تعني يعذبون فيها، ومتى عرض الكافر على النار قلن يخرج منها. كما أن ظنهم أن "غدوًّا وعشيًّا" تعني أنهم لازالوا في الدنيا غير صحيح، بشهادة القرآن الذي يخبرنا عن أهل الجنة يوم القيامة بقوله: إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا {60} جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا {61} لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا {62} تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا {63} مريم.

فأهل الجنة لا يسمعون فيها لغوا ولهم رزقهم بكرة وعشيًّا، مع أن الجنة ليس فيها لا بكرة ولا عشيًّا، لأنه ليس فيها شمس: {مُتَكَبِّرِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا} الإنسان 13

إذا، قوله عن آل فرعون أنهم يعرضون عليها غدوًّا وعشيًّا، وعن أهل الجنة بكرة وعشيًّا، لتقريبها من ذهن القارئ فقط، ليقول أن عذاب آل فرعون ونعيم أهل الجنة مستمر.

ثم تتوجه الآيات إلى مستضعفي مكة الذين بقوا على كفرهم تبعاً لسادتهم "كبراء قريش": وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ {47} قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ {48} وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ {49} قَالُوا أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ {50}.

والآيات تصور ما سيكون عليه حالهم يوم القيامة، إن لم يؤمنوا.

(الآيتان: 51-52) تؤكد أن النصر في النهاية للرسول ومن آمن: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ {51} يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ {52}.

والخطاب موجه للرسول ومن آمن معه، مما يشير إلى أنهم يتعرضون للأذى من قريش، والآية تشد من أزرهم وتعدهم بالنصر ليصبروا على المحن. والإخبار هنا عن النصر لا يعني أن الله جل وعلى سيتدخل في تحويل الأوضاع، ولكن الآيات تتحدث بما يعرف بالضرورة. فمحمد أرسل لكل الناس وسيتكاثر المسلمون. ولو دخلوا في حرب مع الكفار فسيكسبون الحرب في النهاية ولو خسروا بعض المعارك. لأنه سيكون لديهم دافع وحماس وعقيدة، بينما الكفار يحاربون حمية. إضافة إلى أن تعداد المسلمين سيزداد وتقل أعداد الكفار. أما نصر الله لرسول سابقين، فتمثل بنجاة الرسول ومن آمن، وهلاك الكفار بكوارث طبيعية.

(الآيتان: 53-54) عود للحديث عن موسى وبني إسرائيل: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ {53} هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ {54}.

ثم تعود السورة لمخاطبة الرسول: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِبْكَارِ {55}. وتعهده بالنصر، وعليه الصبر والاستعانة بالاستغفار والتسبيح، مما يشير إلى أن الرسول (ومعه المؤمنون) يتعرضون للأذى كما أشارت الآيتان: 52-53.

(الآية: 56) تعود للحديث عن جدال قريش لمحمد الذي أشارت له الآية 35: إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ {56}.

وبقية السورة تتحدث عن مواضيع عدة بشكل متداخل، بحيث تتحدث آية عن موضوع ثم تخرج لآخر ثم لثالث ثم تعود للأول وهكذا. وسنتوقف عند الآيات التي تؤخذ كأدلة: لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ {57} وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ {58} إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ {59} وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ {60} اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَدُوْ فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ {61} ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا

هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ {62} كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ {63} اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُم فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ {64} هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ {65} قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ {66} هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِيَتَّكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِيَبْلُغُوا أَجَلَ أُمُسِّمْ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ {67} هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ {68} أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرِفُونَ {69} الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ {70} إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ {71} فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ {72} ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ {73} مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ {74} ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ {75} ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ {76} فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرَبِّتْكَ بِبَعْضِ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيْكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ {77} وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فَضِىَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ {78} اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ {79} وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِيَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ {80} وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ {81} أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ {82} فَلَمَّا جَاءَهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ {83} فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّهْ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ {84} فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ {85}.

(الآية: 58) دليل على أن الله لن يغفر لمستحق النار ولن يعذب مستحق الجنة، عدل الله المطلق الذي لا يتعامل بالعواطف.

(الآية: 59) حقيقة أن أكثر الناس لن يؤمن، ليس لأن الحق غامض ولكن لأن الناس يتشبثون بالدنيا.

(الآيتان: 60، 65) الدعاء هنا يعني الاستغفار والتوبة، ولا يعني الدعاء بمعناها الدارج عندنا. وهو ما يعني أن الدعاء لأمر الدنيا لا يستجاب.

(الآية: 61) الطبيعي أن نعمل ونقوم بنشاطاتنا في النهار، وننام في الليل.

(الآية: 64) صوركم فأحسن صوركم = خلقكم في أحسن تقويم.

(الآية: 66) محمد مطلوب منه كل ما يطلب من أي مسلم.

(الآية: 67) نتحدث عن تخلق الإنسان في الرحم، ثم مراحل النمو بعد الولادة، وهناك آيات تتحدث عن تخلق الإنسان الأول، مثل الآيات: 12-14 من سورة المؤمن التي سنمر بها، وبين الموضوعين اختلاف كبير.

(الآية: 78) تأكيد أن الله أرسل رسلا لكل الناس، وليس فقط المذكورين في القرآن.

(الآيتان: 79-80) دليل على أن الحيوانات الأليفة خلقها الله أليفة مطوعة للإنسان، ولم تكن متوحشة واستأنسها الإنسان، وهو ما تؤكد آيات أخرى مثل الآيات: 5-9 من سورة النحل كما سنرى. وهذه الحقيقة تنقض فرضية العلماء أن الإنسان هو من استأنس الحيوانات وطوعها.

(الآية: 82) دليل على أن الأمم السابقين المذكورين في القرآن تعرفهم قريش، وهو ما يعني أنهم يعيشون في منطقة جنوب غرب جزيرة العرب.

(الآيتان: 84-85) دليل على أن التوبة لا تقبل عندما يعلم المرء أنه سيموت، ولو لم يمّت بعد، وهو ما ينفي كلام رجال الدين الذين قالوا أن التوبة تقبل حتى الغرغرة أي ما قبل مفارقة الروح الجسد.

ثم نزلت سورة سبأ

يمكن ملاحظة أن سوراً عديدة مرت دون أن تذكر الصلاة أو الإنفاق، وهذا لا يعني أنهما لم يعودا مطلوبين، وإنما يعني أن المسلمين القلة ملتزمين بتأديتهما قدر المستطاع. وبما أن الخطاب في القرآن تحول لدعوة عموم الناس بما فيهم مستضعفي مكة الذين تقوم عليهم الأعمال الخدمية في مكة فقد ثارت ثائرة قريش التي أعلنت الكفر وصعدت من أذاها للرسول والمسلمين، وبدأت تدخل في جدال مع الرسول لمنعه من توصيل الدعوة للناس، مع سعيها لصد غيرها من الاستماع للرسول.

وتبدأ السورة بتكرار لما ورد في السورة السابقة، حيث تؤكد على عظمة الخالق وقدرته بما نرى من عظمة خلقه. وإصرار قريش على الكفر وإنكار البعث: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا

فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ {1} يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ {2} وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ {3} لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ {4} وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ {5} وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ {6} وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ {7} أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ {8} أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نُخَسِّفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ {9}.

(الآية: 3) دليل على أن كل ما يجري في الكون يسجل مهما صغر.

بعد الآية التاسعة تتجه السورة لمخاطبة بني إسرائيل، بالحديث عن داود وسليمان ومملكة سبأ.

(الآيات: 10-14) تتحدث عن داود وابنه سليمان، وتظهر كم كانت مملكته قوية وتملك إمكانات كبيرة بلغة العصر: وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدُ {10} أَنْ اْعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاَعْمَلُوا صَلَاحًا إِنَِّّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ {11} وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ {12} يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اْعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ {13} فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ {14}.

فالجبال أصبحت مطاوعة له: "أوبي معه" كإشارة إلى مناجم الذهب والحديد والمعادن الأخرى التي اشتهرت بها مملكته. وأصبحت مملكة صناعية "أن اعمل سابغات وقدر في السرد".

كما أوتي داود قدرة على معرفة لغة بعض الطيور.

وبسط سليمان سيطرته على مناطق شاسعة وتوسعت الصناعات في عصره. وكان يعمل له "جن". كما كان يعمل له نوابغ من البشر "يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ". أما الجن فيعملون أعمال غير حسية، لأن المخلوقات النورانية اللا-

جسدية مثل الملائكة والجن لا يستطيعون حمل الأشياء ولا الإمساك بها ولا يتقنون الحرف، ذلك أنه ليست لديهم أجساد مادية بل هم مخلوقين من طاقة.

(الآية: 14) تقول: "فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ". قد تشير الآية إلى جانب من شخصية وحياة سليمان. فهو قد مات ولم يقترب منه أحد لأيام، وهذا قد يعني أنه يتسم بالصرامة لدرجة تجعل العاملين معه لا يتجرعون على الاقتراب منه بدون إذنه. وقد يكون يعيش لوحده – بمعنى أنه لم يكن له أولاد وبنات ونساء – أو أنه اعتاد العيش لفترات دون الاتصال بهم. لأنه لو كان سهل المعشر ولديه أبناء وبنات وزوجة أو زوجات فلن يموت ويبقى في مكانه وهيئته لعدة أيام دون أن يعلم بموته أحد حتى خر (سقط) بعد أن أكلت منسأته الحشرات التي تتخلق من عفن الجثة.

ثم تتحدث السورة عن سبأ: لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ {15} فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ {16} ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ {17} وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْفُرَى الْتِي بَارَكْنَا فِيهَا فُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ {18} فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ {19} وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ {20} وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لَنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ {21}.

وموقعها معروف ولا زالت مسكونة وهي التي تسمى مأرب، و(الآية: 15) تصف المملكة (القرية) وأنها كانت تقع على جانبي وادي يمتد باتجاه غرب-شرق.

(الآية: 16) تقول أن القرية تعرضت لسيل عرم، يعني فيضانات قضت على كل المزارع ولم يتبق إلا شجر الأثل والخمط والسدر.

ولعل "خمط" نسخت خطأ، بدل "حمط" وهو التين الجبلي ولا زال لفظ "حماط" معروف في جنوب غرب جزيرة العرب. (قد يكون السيل بسبب انهيار سد مأرب القريب من سبأ الذي سجله التاريخ)

(الآية: 18) تشير إلى القرى التي قامت قريباً من طريق التجارة القديم الذي ينقل البخور واللبان والبحارات من أقصى جنوب جزيرة العرب مروراً بسبأ وعدد من القرى على امتداد الطريق - نجران، بيشة، تربة- قبل أن يمر بالقرب من مكة (القرى التي باركنا فيها) ثم يستمر إلى الشام مروراً ببثرب وخيبر وتيماء وبلاد القرى.

ثم تنتقل السورة لتقدم ردوداً لمحمد على جدال قريش: قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ {22} وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ {23} قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ {24} قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا نَعْمَلُونَ {25} قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ {26} قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {27} وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ {28} وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ {29} قُلْ لَّكُمْ مَّيْعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ {30} .

(الآية: 28) دليل على أن محمد رسول لكل الناس.

وتتحول السورة لمخاطبة المستضعفين في مكة الذين استمروا على الكفر تبعاً لأسيادهم الذين قالوا: "لَنْ تُؤْمِنَ بِهِذَا الْقُرْآنَ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ" في الآيات السابقة: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُؤْمِنَ بِهِذَا الْقُرْآنَ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْفُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ {31} قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنْحُنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُّجْرِمِينَ {32} وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ {33} .

(الآية: 34) تؤكد أن قريش سارت في كفرها على سنة سارت عليها أمم سابقة: وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ {34} .

وتختتم السورة بالعودة إلى تقديم الرد لمحمد على جدال قريش: وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ {35} قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

يَعْلَمُونَ {36} وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ {37} وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ {38} قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ {39} وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ {40} قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ {41} فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلَا ضَرراً وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ {42} وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرَى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ {43} وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ {44} وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِغْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ {45} قُلْ إِنَّمَا أَعْطِيَكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفَرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ {46} قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ {47} قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَافُ الْغُيُوبِ {48} قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِي الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ {49} قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ {50} وَلَوْ تَرَى إِذْ فَرَعُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُجِدُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ {51} وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَافُسُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ {52} وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ {53} وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ {54}.

(الآيات: 35-36، 39) كأنها تقول أن كثرة الرزق (الأموال) بين الناس في الدنيا مقدر سلفاً من الله. وكأن الله جل وعلى يختار شخصاً للغنى وآخر للفقير. وهذا ليس معنى الآية، لكن المعنى هو أن توزيع الأموال بين الناس لا يعني رضى الله أو سخطه، لأن كل ما في الحياة الدنيا لا يعني شيء. وهناك آيات أخرى تقول أن كسب الدنيا لا يقدره الله ولكنه يخضع لعوامل كثيرة بشرية، ومن ذلك ما ورد في سورة الشورى القادمة: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ {20} الشورى.

(الآية: 44) لم يسبق أن أرسل لقريش رسول قبل محمد.

(الآية: 47) الدعوة - كأى عمل ديني - لها أجر واحد، ومن أخذ عليه أجراً في الدنيا فلن يحصل على أجره في الآخرة. فمن يدعوا لدين الله أو يؤم الناس في الصلاة أو أي عمل ديني آخر ويأخذ عليه أجر في الدنيا فليس له أجر في الآخرة.

سورة الكافرون

قد تكون نزلت في هذه الفترة حيث أن سور الفترة ترشد محمد لما يقول رداً على جدال قريش. والكافرون تشابه ما ورد في آخر السورة السابقة: {قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ} {49} قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ} {50}.

والكافرون تقول: قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ {1} لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ {2} وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ {3} وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ {4} وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ {5} لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ {6}. لكن قريش لم تقبل بالتعايش مع المسلمين.

ثم نزلت سورة لقمان

(الآيات: 1-5) تأكيد على أن القرآن الذي يتلو عليهم محمد هدى ورحمة للمحسنين، الذين تعرفهم بمن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة: الم {1} تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ {2} هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ {3} الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ {4} أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {5}.

والزكاة وصف للإنفاق، وسنرى أن لفظ إنفاق وزكاة تستخدمان لمعنى واحد، وأحياناً يستخدم لفظ صدقة لنفس المعنى، وكل الألفاظ الثلاثة تعني: أخذ المال من الغني وصرفه فيما يحتاجه أفراد المجتمع.

(الآيتان: 6-7) تتحدثان عن أحد كبار قريش: وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ {6} وَإِذَا تُنْذِرَ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قُفْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ {7}.

هذا القرشي نشط في جدال رسول الله وصد غيره من الناس عن سماع الدعوة مثله مثل كبار قريش آخرين، كما ورد في السور السابقة. فقريش تحاول صرف الانتباه عما يتلو محمد "بلهو الحديث" أي حديث يلهي ويصرف الانتباه، ومنه السخرية بالقرآن الذي يتلو رسول الله على الناس. وكان كلما سمع تلاوة القرآن ولّى مستكبراً، والآية تنوّد هذا القرشي بالعذاب الأليم. طبعاً كتب التراص نزع جزء من الآية وحولت معناه إلى أنه يعني الغناء فقط لكي يجدوا لهم دليلاً على التحريم.

(الآيتان: 8-9) وعد للمؤمنين القلة في مكة: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ {8} خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {9}.

وهذا الوعد يسري على كل من آمن وعمل صالحاً في أي مكان وزمان. فالقرآن يخاطب من نزل بينهم لكن تشريعاته ووعد له ولمن يماثلهم.

(الآيتان: 10-11) دعوة عقلانية للتفكير موجهة لقريش: خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ {10} هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ {11}.

وكل الدعوات العقلانية للتفكير بالخلق للاستدلال على عظمة الخالق وقدرته على البعث موجهة دائماً لقريش لأنهم ينكرون البعث.

(الآيات: 12-19) حديث عن رجل "حكيم" اسمه لقمان تعرفه بني إسرائيل، وكان يعظ ابنه، وهي قصة لا تهم قريش، وتهم بني إسرائيل فقد يكون من الشخصيات المعروفة لديهم: وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ {12} وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ {13} وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّالَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ {14} وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُكُمْ فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ {15} يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ {16} يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ {17} وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ {18} وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ {19}.

(الآيتان: 14-15) خارج حديث لقمان، وهي تشريع يوجب رعاية الوالدين. وحتى لو كانا كافرين، فيجب رعايتهما والتعامل معهما بكل رفق، دون طاعتهما في معتقدهما. ويستفاد من هذا القانون أيضاً التعامل مع كل كفار مسالم بالإحسان.

ثم تعود الآيات لإكمال حديث لقمان، الذي يُذَكِّرُ ابنه بتشريعات دينية تؤكد أن الدين الذي يعتقده مماثل للإسلام (أي أن الدين واحد). ومن ذلك الصلاة التي كان لقمان يعرفها، والنهي عن

الصغار للمؤمن وأن يكون عزيزاً مكرماً، بعيداً عن الذل، شريطة ألا يقترب من الكبرياء والخيلاء.

(الآية: 19) تنقل ما قال لقمان عن أن صوت الحمير، فهو يظن أنه منكر، بمعنى مزعج له هو لأنه جهوري. وهذا ليس تقرير أن الله خلق الحمار بصوت منكر. دليل على نقل القرآن لما قال المتحدث.

وبقية الآيات ترد على جدال قريش وتدعوهم للتفكير: أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ {20} وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا أَوَّلُوا كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ {21} وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ {22} وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ {23} نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ {24} وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ {25} اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ {26} وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ {27} مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ {28} أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ {29} ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ {30} أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ {31} وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كَاطِلٌ دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ {32} يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ {33} إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ {34}.

(الآية: 22) العروة الوثقى = الطريق القويم.

(الآية: 28) تؤكد أن نشأة الأجيال الأولى لكل سلالة من سلالات البشر تم بوقت واحد، كما أن البعث لكل الناس سيكون في وقت واحد.

(الآية: 34) للأسف تم تأويل معناها الظاهر القويم إلى أنها تعني أن ما ذكر فيها لا يعلمه إلا الله، وهو: علم الساعة، ونزول المطر، ومعرفة ما في الأرحام، ومكان الرزق والموت.

والآية تقول: "إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ". أي أنه وحده يعلم متى.

وتقول: "وَيُنَزَّلُ الْغَيْثَ". فهو من ينزل الغيث، لكن الآية لا تقول أنه لا يعلم بنزول الغيث مسبقاً إلا هو. وبالتالي فعلم الطقس والأحوال الجوية لا يتعارض مع علم الله وغيبه.

وتقول الآية: "وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ". فهو سبحانه يعلم ما في الأرحام، لكن هذا لا يمنع أن يعلم الناس بذلك أيضاً.

وتقول الآية: "وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا". لكن هذا لا يعني أن شركة منتجة لديها خطط إنتاجية لبيع كميات محددة من منتجاتها غداً بمبلغ كذا، وتنجح في تنفيذ خططها التسويقية أنها علمت بالغيب أو تعارضت معه.

وتقول الآية: "وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ" وهذا صحيح.

سورة النمل

بدايتها مماثل لبداية السورة السابقة، فسورة لقمان تقول: الم {1} تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ {2} هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ {3} الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ {4} أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {5} وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ {6} وَإِذَا تَنَلَّاهُ آيَاتُنَا وَلَّى مُستَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ {7}.

وهذه السورة تقول: طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ {1} هُدًى وَبُشْرَى لِّلْمُؤْمِنِينَ {2} الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ {3} إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زِينًا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ {4} أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ {5}.

(الآية: 6) تأكيد على أن القرآن - وسيلة الدعوة - تنزيل من الله: وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ {6}.

(الآيات: 7-44) قصص من تاريخ يهم بني إسرائيل، يشمل: حديث عن موسى، داود، سليمان مع ملكة سبأ: إِذْ قَالَ مُوسَى لَأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بَخْرٌ أَوْ آتِيكُمْ بِسِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ

تَصْطَلُونَ {7} فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ {8} يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {9} وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ {10} إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ {11} وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ {12} فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ {13} وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ {14} وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ {15} وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ {16} وَخُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ {17} حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ {18} فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ {19} وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدُودَ أَمْ كَانِ مِنَ الْغَائِبِينَ {20} لَا عَذْبَاءَ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ {21} فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ {22} إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ {23} وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ {24} أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاءَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ {25} اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ {26} قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ {27} أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ {28} قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ {29} إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ {30} أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ {31} قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ {32} قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ {33} قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ {34} وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ {35} فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ {36} ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ {37} قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ {38} قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ {39} قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي

أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ {40} قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ {41} فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ {42} وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ {43} قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ {44}.

(الآية: 18) تتحدث عن تحذير نملة لبقية النمل بالدخول لمساكنها (جورها) قبل أن يحطمها سليمان وجنوده. وهذا يعني إمكانية تعلم البشر لغة النمل. ومن واقع ملاحظة شخصية أستطيع القول أن النمل (المسمى باللهجة المحلية قعس) تفر بعيداً من طريقك عندما تقترب منها. وقد تكون هي نملة سليمان. وهي ذات أطراف طويلة وجسدها مرتفع عن الأرض وتستطيع عقف نصفها الأخير إلى أعلى، وهي سريعة جداً. أما النمل الصغير أو حتى النمل الكبير المعروف محلياً باسم (القعر) فلا يبتعد عن اتجاهاك أثناء المشي.

كما يمكن الاستفادة من حديث سليمان والهدهد أنه يمكن تعلم لغة الطيور، ويمكن تربية الهدهد كطائر أليفك الحمام. وبالمناسبة ومن واقع مشاهدات شخصية أقول أنه يمكن تربية الغراب، وتدريبه على أن ينطق كلمة أو كلمتين بشكل قريب من نطق الببغاوات.

(الآيات: 45-58) موجهة لقريش، وتخبرهم عن بعض أخبار ثمود وقوم لوط: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ {45} قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ {46} قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ {47} وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ {48} قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ {49} وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ {50} فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ {51} فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ {52} وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ {53} وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ {54} أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ {55} فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ {56} فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ {57} وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ {58}.

والآيات بدء من الآية 59 وحتى نهاية السورة تخاطب محمد، لكن مواضيعها متنوعة، كما يلي:

(الآيات: 59-75) تقدم الرد لمحمد على جدال قريش، كما في سور سابقة: قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ {59} أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ دَاتَ بِهِجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلِلَّةٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ {60} أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَلِلَّةٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ {61} أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلِلَّةٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ {62} أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيَّاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلِلَّةٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ {63} أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلِلَّةٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ {64} قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ {65} بَلْ أَدَارِكْ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ {66} وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْذَا كُنَّا ثَرَاباً وَآبَاؤُنَا أَنْثَا لَمُخْرَجُونَ {67} لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ {68} قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ {69} وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ {70} وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ {71} قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَّكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ {72} وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ {73} وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ {74} وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ {75}.

(الآية: 70) تقول لمحمد: " وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ". وهو ما يشير إلى أن محمد استمر يشعر بالأسى والحزن على مصير قريش الذين اختاروا بأنفسهم.

(الآية: 75) تؤكد ما ذكرته سور سابقة مثل سبأ: 3، من أن كل شيء في الكون يسجل.

والآية: 76 تأكيد على أن القرآن يقص على بني إسرائيل تفاصيل تاريخهم الحقيقي، وليس تلك القصص الغير مؤكدة التي في كتبهم. وإخبار بني إسرائيل بحقائق تاريخهم كدليل على أن محمداً رسول من الله، وما يتلوا عليهم وحي، لأنه لو كان من عنده لما عرف هذه التفاصيل: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ {76}.

(الآية: 77) القرآن – وسيلة الدعوة – هدى ورحمة: وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ {77}.

(الآيات: 78-81) شحذ لهمة، وتأكيد على أن الهداية خيار شخصي، وأنت لست مسئولاً عن هداية أحد، وكل ما عليك هو تلاوة القرآن: إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ {78}

فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ {79} إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ {80} وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ {81}.

وسنتوقف عند (الآيات: 82-85)، والتي تقول: وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ {82} وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ {83} حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ {84} وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ {85}.

الدابة حولها المفسرون لوحش سيظهر آخر الزمان كواحد من علامات الساعة المزعومة عندهم. وهذا التصور مقتبس من خرافات المسيحيين، ومن الكتاب الذي اسمه رؤيا يوحنا اللاهوتي، والذي عبارة عن وصف لأحلام رآها، ومن ذلك وصفه لوحش رآه في أحد أحلامه، يقول عنه: فرأيت وحشا طالعا من البحر له سبعة رؤوس وعشرة قرون وعلى قرونيه عشرة تيجان وعلى رؤوسه اسم تجديف (13:1). ويقول إن هذا الوحش يضع علامة له على أيدي الناس أو جباههم عبارة عن الرقم 666: يجعل الجميع الصغار والكبار والأغنياء والفقراء والأحرار والعبيد تصنع لهم سمة على يدهم اليمنى أو على جبهتهم. وان لا يقدر احد ان يشتري او يبيع الا من له السمة او اسم الوحش او عدد اسمه. هنا الحكمة. من له فهم فليحسب عدد الوحش فانه عدد انسان. وعدده ست مئة وستة وستون. (13: 16-18) انتهى كلام يوحنا.

وقام المفسرون بأسلمة هذه الدابة وتحوير قصصها المسيحية، وقالوا أن هذه الدابة هي المذكورة في قوله تعالى: وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ {82} والنمل. وفسروا وقع القول بأنه يعني آخر الزمان.

ووقع القول عليهم لا يكون إلا يوم القيامة، وليس في الدنيا. والحديث في سياق الآيات عن قريش التي لم تر دابة تخرج من الأرض. والآيات تقول: وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ {82} وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ {83} حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ {84} وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ {85} النمل.

فوقوع القول عليهم يكون يوم القيامة.

(الآية: 86) دعوة عقلانية للتفكير: أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنَا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ {86}.

(الآيات: 87-90) صور حسية لنشأة كون القيامة، ولما سيكون يوم الحساب: وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ {87} وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ {88} مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ {89} وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ {90}.

"الصُّور" يعني الكون باستخدامنا الحالي. ويوم القيامة سيكون الحساب فيه بناءً على صحيفة الأعمال، فمن جاء بالحسنة فله الجنة، ومن جاء بالسَّيِّئَةِ فله العذاب.

(الآيات: 91-93) ترد على جدال قريش لمحمد: إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ {91} وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ {92} وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ {93}.

والرسول مكلف بالأعمال كأَي مسلم، وسيحاسب كأَي مسلم بلا تميز (الآية: 91).

مكة بلدة محرمة ويجب أن تبقى كذلك (الآية: 91). فهل بقيت؟ أم استبيحت حرمتها؟

في كتب الأحاديث التي يؤمن بها أهل الفقه السائد، أحاديث تقول أن الرسول قال يوم فتح مكة: إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة. لا يختلي خلاها ولا يعضد شوكتها ولا ينفر صيدها ولا يلتقط لقطتها إلا من عرفها فقال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم وليبوتهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا الإذخر.

ترى كيف تم بناء ناطحات السحاب التي تحيط ببيت الله دون يعضد شوكة الأرض أو تطع شجيراتهما؟

وتقول (الآية: 92) أن الدعوة كانت بتلاوة القرآن فقط، دون كلام الرسول العادي (الحديث)، والهداية خيار شخصي.

ثم نزلت سورة الحجر

(الآيات: 1-15) قريش لن تؤمن، ويبررون كفرهم باتهام محمد بالجنون، ولو كان صادقاً لنزلت عليهم الملائكة تخبرهم أنه رسول الله. وكفر قريش سنة سارت عليها أمم سابقة، وحتى لو أعطي محمد معجزة فلن تؤمن قريش: الرِّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ {1} رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ {2} ذَرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِيهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ {3} وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ {4} مَا تَسْقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ {5} وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ {6} لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ {7} مَا نُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ {8} إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ {9} وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ {10} وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ {11} كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ {12} لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ {13} وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ {14} لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ {15}.

(الآية: 1) تأكيد على أن القرآن – وسيلة الدعوة – آيات بينات.

الآية الثانية: "رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ". مثال آخر على أساليب القرآن. فربما هنا لا تعني "من المحتمل" ولكنها تعني أنهم سيمتنوا لو كانوا آمنوا. وهذا سيكون يوم القيامة عندما يعرفون أنها حق وأن مصيرهم النار.

الآية (3) تشير إلى أن الرسول استمر يتحسر عليهم والآية تقول: دعهم يغمسوا في دنياهم وسيموتون سريعاً مهما طالَّت أعمارهم، وعندها سيواجهون مصيرهم.

الآية: {وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ} {4}. والكتاب المعلوم هنا يعني أن ما حدث لهم مسجل وموثق، ولا تعني أن هلاكهم قدر عليهم مسبقاً. كما في سور أخرى مثل: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} {3} سبأ.

(الآية: 8) تؤكد أن رؤية الناس للملائكة تعني وقوع العذاب بهم، وهو ما ينفي كل ما ورد في كتب الحديث والتفسير وغيرها من كتب السلف من قصص تروي نزول جبريل ورؤيتهم له.

(الآية: 9) بعد أن قالت الآيات السابقة لقريش أن الملائكة لن تنزل، تقول هذه الآية لهم أن الله أنزل الذكر (القرآن) كاف لمن يؤمن، وحفظ نسخته الأصلية بعلمه.

(الآيات: 10-13) لم تؤمن قريش لأنها سارت على نفس سنة أمم سابقة.

(الآيتان: 14-15) لو رأت قريش كل آية سألت الرسول أن يريها لهم فلن تؤمن، وسيجدون مبررات أخرى للتمسك بموقفهم المنكر للدعوة.

(الآيات: 16-25) دعوة عقلانية للتفكير بالمخلوقات للتعرف على قدرة الخالق على البعث: وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ {16} وَحَفَظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ {17} إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ {18} وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ {19} وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ {20} وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ {21} وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ {22} وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ {23} وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ {24} وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ {25}.

(17) الجان ممنوعين من التجوال في الكون. ذكرت ذلك سور سابقة.

(الآيات: 26-42) خلق آدم وموقف إبليس، وهي موجهة لبني إسرائيل كالعادة: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ {26} وَالْجَانَ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَّارِ السَّمُومِ {27} وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ {28} فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ {29} فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ {30} إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ {31} قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ {32} قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ {33} قَالَ فَاهْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ {34} وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ {35} قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ {36} قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ {37} إِلَى يَوْمِ الْوَفْتِ الْمَعْلُومِ {38} قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ {39} إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ {40} قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ {41} إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ {42}.

إبليس من الملائكة، الآية 28 تقول: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ.

وتقول السورة: {فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ {30} إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ {31}.

(الآيات: 43-48) وعيد للكفار، ووعد للمؤمنين مع صور حسية للنعيم: وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ {43} لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ {44} إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ {45} ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ {46} وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ {47} لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ {48}.

(الآيات: 49-50) المخاطب محمد ليقول للناس أن الله غفور لمن يسعى للغفران، وشديد العذاب للعاصي: نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ {49} وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ {50}.

(الآيات: 51-60) عن وصول الملائكة لإبراهيم في مكة على هيئة بشرية: وَنَبَّيْنَاهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ {51} إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ {52} قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ {53} قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ {54} قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ {55} قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ {56} قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ {57} قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ {58} إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ {59} إِلَّا أَمْرًا تَقْدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ {60}.

وقد بشروه بغلام (هو إسحاق) لأن إسماعيل ولد في أول أيام إبراهيم في مكة وعندما كان إبراهيم وزوجه شابين. وأخبروه أنهم في طريقهم لقرية لوط، التي هي قرية إبراهيم التي خرج منها. وذلك لكي يخرجوا منها لوط ومن آمن معه، قبل أن يثور البركان، والذين لم يزيدوا عن أسرة لوط، باستثناء زوجته.

(الآيات: 61-77) عما حدث للملائكة في قرية لوط، وما حدث لقوم لوط: فَلَمَّا جَاء آلَ لُوطِ الْمُرْسَلُونَ {61} قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ {62} قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ {63} وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ {64} فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ {65} وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ {66} وَجَاء أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ {67} قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ {68} وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ {69} قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ {70} قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ {71} لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ {72} فَأَخَذْتُهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ {73} فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ {74} إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ {75} وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ {76} إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ {77}.

لوط ومن آمن معه (أسرته فيما عدا زوجته) خرجوا من القرية في الليل. وثار البركان أول الصباح.

(الآيات: 67-71) تقول أن قوم لوط (الذين يأتون الذكران دون النساء) تسابقوا للوصول لبيت لوط حينما سمعوا بوصول ضيوف له، لعلهم يفعلون بهم الفاحشة.

(الآية: 71) تقول أن لوط عرض على القوم بناته بدلاً من أن يخزوه في ضيفه. وهذا العرض حدث بالفعل لأن سوراً أخرى أكدته. وهو ما يجعلنا نقول أن لوط في تلك اللحظة تصرف كبشر، ملتزم بكرم الضيف كعادة متأصلة، جعلته يفضل أن يقدم بناته ليفعل القوم بهن الفاحشة على أن يسمح لهم بفعلها في ضيوفه. وقد يشير أيضاً أنه ليس كل قوم لوط ممن يأتون الذكران، وإنما بعضهم من المنحليين أخلاقياً هم من يقوم بذلك. أما بقية المجتمع – وإن كانوا كفاراً إلا أنهم يحترمون مكارم الأخلاق. ((هذا مجرد احتمال))

وبطبيعة الحال لم يتمكن القوم من الإمساك بضيف لوط لأنهم مخلوقات نورانية لا جسدية.

وقد ثار بهم البركان وقت شروق الشمس (73) وكان معه زلزال (74).

والقرية قريبة من مكة وتقع بالقرب من طريق مطروق، قد يكون طريق التجارة القديم (76).

(الآيتان: 78-79) عن قوم شعيب (أصحاب الأيكة) وكانت قريتهم بالقرب من طريق مشهورة، وهي نفس الطريق التي تقع عليها قرية لوط: وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ {78} فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ {79}.

(الآيات: 80-84) قوم صالح وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً، مما يعني أنهم ليسوا مدائن صالح، التي نحتت كمقابر وليس بيوت: وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ {80} وَأَتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ {81} وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ {82} فَأَخَذْنَاهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ {83} فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ {84}.

وكل هذه أمم تخاطب بها الآيات قریش.

وبقية الآيات: 85-99: موجهة لمحمد، ترشده وتشجده: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْغِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ {85} إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ {86} وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَتَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ {87} لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ {88} وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ {89} كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ {90} الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ {91} فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ {92} عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ {93} فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ {94} إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ {95} الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ {96} وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ {97} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ {98} وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ {99}.

فهي تأمره بالتسامح مع أذى قريش (85).

وتذكره ببعض نعم الله عليه (87).

وتوبخه على مد عينيه إلى أزواج بعض رجال قريش، وتقول له ألا يشعر بالحزن والأسى على مصير قريش، وتحثه على خفض جناحه وبشاشته للمؤمنين (88).

(الآيات: 89-93) ترشده أن يقول لقريش أنه مجرد نذير لهم، وأن هجرهم للقرآن وعداوتهم له (حيث جعلوه عشرين وعدو) سيسألهم الله عنه.

(الآيات: 94-99) تأمره بالاستمرار بتلاوة القرآن، وأعرض عن المشركين. والله يعلم أن محمد يضيق صدره بما يسمعه منهم من كلام ناب وسخرية، وعلى محمد أن يستعين بالله ويتقوى بذكره وتسييحه.

ثم نزلت سورة طه

تواصل هذه السورة القول لمحمد أن الدعوة ليست لشقاء محمد، وهو امتداد لما ذكر في نهاية السورة السابقة: طه {1} مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِشِقَاقٍ {2} إِلَّا تَذَكُّرٌ لِّمَن يَخْشَى {3} تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى {4} الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى {5} .

ومن الواضح أن محمد كان يعيش أوقاتاً عصيبة بسبب ما يواجهه من قريش، والقرآن يقول له أن الدعوة ليس المقصود منها تعذيب محمد، ولكنه اختيار ليلغ رسالة ربه ولذا يحدث له هذا العنت.

وتؤكد السورة على أن القرآن – وسيلة الدعوة – تنزيل من الله.

(الآيتان: 6-7) تؤكد أن كل شيء يسجل في الكون الذي يدور بقوانين ثابتة. وهو ما يخالف ذلك الحديث الذي ينسب لله النزول للسماء الدنيا ليدنوا من خلقه: لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى {6} وَإِنْ تَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى {7} .

(الآية: 8) تذكر أن لله أسماء حسنى: اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى {8} . ((حبذا لو قام أحد القراء أو بعضهم إحصاء كم اسم لله ذكر في القرآن)).

(الآيات: 9-99) عن موسى وفرعون وبني إسرائيل: وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى {9} إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى {10} فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى {11} إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى {12} وَأَنَا اخْتَرْتُكَ

فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى {13} إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي {14} إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى {15} فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى {16} وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى {17} قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى {18} قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى {19} فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى {20} قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى {21} وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى {22} لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى {23} أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى {24} قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي {25} وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي {26} وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي {27} يَفْقَهُوا قَوْلِي {28} وَاجْعَلْ لِّي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِي {29} هَارُونَ أَخِي {30} اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي {31} وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي {32} كَيْ تُسَبِّحَكَ كَثِيرًا {33} وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا {34} إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا {35} قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى {36} وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى {37} إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى {38} أَنْ اقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي {39} إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَى {40} وَاصْطَلَعْتَكَ لِنَفْسِي {41} أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي {42} أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى {43} فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى {44} قَالََا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى {45} قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى {46} فَأَتَيْنَاهُ فُقُولًا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بَآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى {47} إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى {48} قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى {49} قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى {50} قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى {51} قَالَ عَلِمْنَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى {52} الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى {53} كُلُّوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى {54} مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى {55} وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى {56} قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى {57} فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوَّى {58} قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ ضَحَى {59} فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى {60} قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى {61} فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرَوْا النَّجْوَى {62} قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقِكُمُ الْمُغْلَى {63} فَاجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَنتُوا صَفًّا وَقَدْ

أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى {64} قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى {65} قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى {66} فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى {67} قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى {68} وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى {69} فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى {70} قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آدَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِّي أَنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى {71} قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا {72} إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى {73} إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى {74} وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى {75} جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى {76} وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى {77} فَأَتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ {78} وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى {79} يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى {80} كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى {81} وَإِنِّي لَعَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى {82} وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى {83} قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى {84} قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ {85} فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوعِدِي {86} قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَكِنَّا حُمَلْنَا أَوْزَارًا مِّنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ {87} فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُم وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ {88} أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا {89} وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي {90} قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى {91} قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا {92} إِلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي {93} قَالَ يَا ابْنَ أُمِّ لَئِيْلَ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْفُقْ قَوْلِي {94} قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ {95} قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي {96} قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا

لَنَحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا {97} إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا {98} كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاء مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا {99}.

والتكليم كان في وادي طوى، وهو واد قريب من الحرم، طواه البنيان اليوم، وحل محله شارع عمر ابن عبد العزيز وشارع طوى. وبئر طوى لازالت موجودة في مكة ولكنها مهجورة ومهملة، وتقع بالقرب من تقاطع شارع عمر ابن عبد العزيز مع حسان ابن ثابت. وقد تم تحديد موقع مصر فرعون وكل ما له علاقة ببني إسرائيل في أحسن القصص.

(الآيات: 99-104) تقول أن من يرفض القرآن (الذكر الذي أنزل على محمد) فسيخلد في النار: كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاء مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا {99} مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا {100} خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا {101} يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا {102} يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا {103} نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا {104}.

ما ورد دليل على وجوب الإيمان بدين محمد ولا يقبل دين غيره. ودليل على أن يوم القيامة الذي سيكون بعد أن ينشأ كون جديد (ينفخ في الصور).

الآية: 102 تقول أن المجرمين يحشرون يوم القيامة زرق. وهذا كناية عن هول قلقهم من مصيرهم الذي عرفوا أنه محتوم.

وتقول السورة أن المجرمين عندما بعثوا: {يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا {103} نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا {104}.

فإن كانوا يقصدون حياتهم في الدنيا فهي تشير إلى أن الدنيا تمر بسرعة، وكأن المرء لم يعيش فيها سوى مدة قليلة. وهذا يمكن فهمه لأي منا عندما يفكر بالأعوام السابقة التي مرت عليه، وكأنها لحظة.

أما إن كان المقصود الفترة التي مرت منذ ماتوا وحتى البعث، فهو دليل على أن هذه الفترة ولو طالَت لبلايين السنين فلن يشعر بمرورها الميت لأن الذاكرة تتوقف عن التسجيل. وهو دليل على أنه لا وجود لعذاب القبر، إذ لو أن هناك عذاب قبر لما مرت الفترة بسرعة.

(الآيات: 105-112) أجوبة على أسئلة قريش: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا {105} فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا {106} لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا {107} يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ

الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا {108} يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا {109} يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا {110} وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا {111} وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا {112}.

وقريش تسأل عن يوم القيامة وأين ستكون؟ وما الذي سيحدث للجبال؟ وهو سؤال من البيئة، كون الجبال الشاهقة تحيط بمكة من كل جانب. فجاء الجواب بأنها ستنتسف وتسوى بالأرض. وهذا الجواب لتقريب الصورة في ذهن السائل مع مراعاة مداركه. وإلا فالقيامة ستكون في كون آخر غير هذا الكون، كما تؤكد سور عديدة، وعالم القيامة مختلف عن هذا الكون ويستحيل علينا تصوره.

وفي ذلك اليوم، ستجزى كل نفس ما كسبت، إن شر فشر، وإن خير فخير.

(الآية: 113) تخاطب قريش: وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا {113}. ودليل على أن دعوة محمد تقوم على تلاوة القرآن فقط.

(الآية: 114) تخاطب محمد: فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا {114}.

وتقول له أنه لا حاجة لأن يردد آيات السورة التي تنزل عليه خوفاً من نسيانها فهو لن ينساها. وهذا يعني أن محمد ومن باب الحرص عاد لما كان يفعل في بداية الدعوة، وأصبح يردد آيات السورة التي تنزل عليه خوفاً من نسيانها. وكانت سورة القيامة أول سورة تؤكد للرسول أنه لا يحتاج لترديد نصوص الوحي لأنه ينسخ في ذاكرته ولن ينساه: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ} {16} إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ {17} فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ {18} ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ {19}. وكلا الآيتان دليل على أن القرآن ينسخ في ذاكرة الرسول وأنه كان بإمكانه أن يسترجعه متى أراد حتى آخر يوم في حياته. وهو ما يعني أن الرسول قد أمر بكتابة القرآن في آخر حياته وبعد أن اكتمل نزوله، وقبل وفاته.

(الآيات: 115-123) عن آدم وإبليس وهي مما يهيم بني إسرائيل: وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً {115} وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى {116} فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى {117} إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى {118} وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى {119} فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ

عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى {120} فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى {121} ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى {122} قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى {123}.

ثم تقول السورة في حديث عن وضع مشركي قريش: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} {124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً {125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى {126} وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى {127}. وهي كناية مشابهة لما ورد في الآية 102 من السورة السابقة طه، والتي تقول: {يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً} {102}.

فالمجرمون (الكافرون) لن يحشروا زرقاً، ولن يعيشوا في الدنيا عيشة ضنكاً، ولن يفقدوا البصر. هي كناية.

(الآية: 128) تقول أن قريش لم تعتبر لما حل بأهم سابقة أهلكت بسبب كفرها، وقريش تعرف مساكنهم: أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى {128}.

وتقول الآية التالية: 129 : وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى. فالدنيا إن لم يعذب فيها كفار قريش فهذا عائد إلى أن الله خلق الدنيا للتحصيل والقيامة للحساب والجزاء.

(الآيات: 130-135) تخاطب محمد: فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى {130} وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى {131} وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى {132} وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى {133} وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نَّذِلَّ وَنَخْزَى {134} قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنِ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى {135}.

وتطلب منه الصبر على سخرية قريش واتهاماتهم وجدالهم، واستعن بذكر الله على تحمل الأذى. والآية: 131 تكرر نهى الرسول من أن يمد عينيه (يطيل النظر) لبعض أزواج رجال قريش.

الجماليات: "وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ". وهو ما سبق ونهته عنه سورة الحجر السابقة (الآية:88).

والرسول هنا تصرف كبشر خاصة أنه شاب وزوجه "خديجة" قد بلغت من العمر عتياً. ويبدو أن رسول الله امتثل لأمر الله ولم يعد ينظر لأي امرأة أجنبية لأنه لو فعل فسيفضحه القرآن، والقرآن لم يشر لأي تصرف مماثل بعد ذلك أبداً.

ومما أمر به القرآن هو أن يداوم على الصلاة ويأمر بها أهله (أهل بيته) وهم زوجته خديجة وبناتها الأربع: رقية ، أم كلثوم، زينب، وفاطمة.

وتعود آيات آخر السورة للحديث عن قريش، الذين يكررون على محمد أن يريهم آية (معجزة) ليصدقوا أنه رسول الله، ويرد عليهم القرآن بأنه لو أرادوا الإيمان لكفاهم ما في القرآن الذي هو نفس الأديان السابقة. ولو رأوا آية فسيجدون مبررات أخرى تبقيهم على كفرهم، كما أنه لو حل بهم كارثة قبل بعثة محمد لتمكنوا لو أرسل لهم رسول ليهتدوا. وهاهو محمد بينهم ولم يؤمنوا به.

والآية الأخيرة تشير إلى أن قريش تتربص بمحمد، والتربص يعني التخطيط لقتله. ولم تنفذ قريش مخططها، كما لم تحاول قتل الرسول، وهذا راجع إلى أن مكة بلد آمن. وهذا العرف بقي محترماً من قريش وكل أهل جزيرة العرب منذ مئات وآلاف السنين ولا تجرؤ قريش على خرقه. وكانت قريش قد فكرت بقتل محمد في المرحلة السابقة، وهو ما ذكرته سورة الطور (الآيتان:30-31)، ولن تستطيع قريش قتل محمد إلا لو خرج خارج مكة.

وإلى لقاء الغد مع اليوم رقم 7 إن شاء الله

والسلام عليكم